

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السادس والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة /عبد الرزاق باشا السنهورى

القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السادس والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

٥٠٨٧-١٩٨٠-٢٥٠٠٤

(* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٩ - (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . .) الآية .

قبل هذه الآية ضرب الله مثلا للحق بماءٍ أنزله من السماء ، فسالت به أودية بقدرها وانتفع به الناس ، وضرب مثلا للباطل بالزَّبَد الذى يعلو فوق الماء ولا يلبث أن يضْمَحِلَّ ويزول ، وبيَّن أن الذين استجابوا لربهم لهم الحسنى والذين لم يستجيبوا لربهم لهم سوءُ الحساب ومأْواهم جهنم وبئس المهاد .

وجاءت هذه الآية لتقرير استحقاق المستجيب لربه أحسن الجزاء ، واستحقاق المعرض عنه سوءَ الحساب وشر العقاب .

والمعنى : أيستوى فى الجزاءِ مؤْمن وكافر ؟ - كلا - فمن هو بصير يعلم بنور قلبه وإرشاد عقله وهداية ربه أن القرآن الذى أنزله إليك ربك يامحمد هو الحق الذى لايشوبه باطل ، مَنْ كان هذا شأْنه - لايتساوى عقلا مع من هو أعمى القلب لايتبين الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، فلهذا أحسن الله جزاءَ من استجاب له وآمن بكتابه ، وأساءَ حساب وجزاء من أعرض عن دعائه ، وكذَّب برسوله وكتابه .

ثُمَّ ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ) : ليبين أن أصحاب العقول النظيفة ، والأَفكارالمستنيرة ، هم الذين يتذكَّرون ويتَّعظون بما يسمعونه مَن آيات الله البينات ، دون سواهم من أصحاب العقول المغطاة بحجب الباطل ، وغياهب التقليد .

روى أن هذه الآية نزلت فى حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - وأبى جهل لعنه الله ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

(ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بِعَهْدِ اللهِ) : بما عاهدوه عليه من الإيمان به ، والعمل بما أمرهم به فى كتبه التى أنزلها إليهم .

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : المراد بالميثاق ما أخذوه على أنفسهم من العهود نحو ربهم ونحو عباده وقال القفال : هو ما ركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات والشرائع ، ونقض الميثاق : عدم العمل به .

(ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) : الابتغاء معناه الطلب ، والمراد بالوجه : الذات .

(وَيَدْرَءُونَ) : أى يدفعون .

(عُقْبَى الدَّارِ) : عاقبة دار الدنيا التى أعدت للصالحين - وهى الجنة .

التفسير

٢٠ - (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) :

بعد أن بيّنت الآية السابقة أن الذين يتذكرون ويتعظون بالمواعظ هم أصحاب العقول الصافية من عوامل الهوى ، جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان أوصافهم .

والمعنى : وما يتذكر إلا أُولو العقول الصافية الذين يوفون بما عاهدوا الله عليه من الاعتراف بربوبيته بقولهم: «بلى» جوابا لسؤاله البشر «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»: وذلك حين أخرج من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .

ويحتمل أن يكون المراد من عهده تعالى ما خَلَقَه فيهم من القوى العقلية والجسدية التى توجب عليهم عبادة الله . ويتمكنون بها من أداء ماكلفهم به ، فإن ذلك بمنزلة العهد بينهم وبين ربهم . ومن العلماء من فسر عهد الله بتكاليفه التى عهد إليهم بها فى كتبه التىأنزلها إليهم .

ثم ختم الآية بقوله : (وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : وهو تعميم بعد تخصيص إن أُريد من العهد الاعتراف بالربوبية ، أى ولا ينقضون ماوثقوه على أنفسهم من إيمانهم بربهم ومواثيقهم مع خلقه سبحانه مؤمنين أو كافرين ، فإن أُريد من كُلٍّ من العهد والميثاق العموم كانت هذه الجملة مؤكدة للأولى

٢١ - (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ) :

هذه هى الصفة الثانية لأُولى الألباب الذين مدحهم الله بأَنهم هم الذين يتذكرون .

والمعنى : ومايتذكر بالمواعظ إلا أُولو الأَلباب الأَوفياء والذين يصلون ما أمر الله بوصله من الطاعات كَبِرِّ الأَرحام ، والعطف على الأَيتام ، وأداء الحقوق للناس ، والإيمان بجميع الأَنبياء دون تفريق بينهم ، والإحسان إلى جميع الحيوانات ، فكل ذلك وأَمثاله من الطاعات يعتبر وصلا لما أمر الله به أَن يوصل .

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) :أَى ويخافون إلٰـــههم ومالكهم وخالقهم ومربِّيهم ؛ يخافونه خوف إجلال وإعظام ، ويخافون أيضا سوءَ حسابه تعالى لهم فيبعثهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر الله بوصله ، ويبتعدوا عما يغضبه عليهم ، وسوءُ الحساب يكون بالمناقشة والاستيفاء وعدم التجاوز ، ومن نوقش الحساب عذب - نعوذ بالله من ذلك - فلا طوق لأَحد بعذابه .

٢٢ - (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) :

هذه هى الصفة الثالثة لأُولى الألباب .

والمعنى : وما يتذكر إلَّا أُولو الألباب الذين صبروا على التكاليف ، وقهروا النفس الأمارة بالسوءِ حتى أخضعوها لطاعة ربها ، وكان صبرهم هذا طلبا لرضا ذات ربهم ، من غير نظر منهم إلى جانب الخلق رياءً وسمعة ، ولا إلى جانب النفس زينة وعجباً ، وأقاموا الصلاة المفروضة فأَدَّوْها مستوفية الأركان والشروط ، وأنفقوا بعض مارزقناهم بحيث لايقل عما فرضه الله عليهم فى الزكاة . وكان إنفاقهم له سرًّا ، حينما يكون السر أولى فى الإنفاق من الجهر ، وجهرًا حينما يكون الجهر أرجح من السر . والإنفاق سرًّا أولى فيما إذا كان المنفِق لايتَّهم بترك الزكاة ، أوكان الآخذ مستور الحال خشية أن يخدش حياؤه بأخذه الزكاة جهرًا . وكما فى صدقة التطوع ، إلى غير ذلك من المقتضيات . والإنفاق جهرا أولى إذا كان لحمل المياسير على الاقتداءِ به ، أو خوفا من أن يتَّهم بالشحّ . أو لغير ذلك من الأغراض الشريفة .

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) :

أى ويقابلون السيئة بالحسنة ليمنعوا تكرارها ، فإنك إذا أحسنت إلى من أساءَ إليك ، يستحى أن يكرر مساءته بعد أن قابلتها بإحسانك . مالم يكن المسىءُ لئيماً لايَثْنِيه الإحسانُ عن المساءة فإن مقابلة شره بمثله تكون أولى ، فإن من لم يتذأب أكلته الذئاب . وفسَّرها بعضُهم بأنهم يتبعون السيئةَ الحسنة فتمحوها كما جاءَ فى السُّنَّة .

(أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) :

أى أُولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ، لهم عاقبة دارِ الدنيا التى ينبغى أن تكون عاقبة لها بالنسبة للمكلفين فيها ، وهى الجنة .

(جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : العدن فى اللغة :الإقامة .ومنه عدن بالمكان أى أقام به . وفى عرف الشرع اسم لجنة من جنان الآخرة . والمراد هنا المعنى الأول . أى جنات إقامة . فهم يقيمون فيها لايبرحونها .

(سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ) : أمان لكم من المحن والآفات .

التفسير

٢٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخلونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) : لما بيَّن الله تعالى فى الآية السابقة أن الصابرين ابتغاء وجه ربهم المتصفين بما جاء فيها من الصفات الجليلة ، لهم عاقبة حسنة بعد دار الدنيا ،جاءت هذه الآية لبيان أن هذه العاقبة هى الجنة ، وبيان من يدخلها معهم وما يقال لهم فيها .

والمعنى : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واتصفوا بتلك الصفات الجليلة ،لهم عاقبة الدار الدنيوية ، وهذه العاقبة هى جنات إقامة واستقرار يدخلونها، ويدخلها معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم وإن لم يبلغوا فى الصلاح مبلغهم ،إكراما لهم وتعظيما لشأنهم ،وزيادة فى أنسهم ، وهذا الفضل يشهد به ماجاء فى قوله تعالى فى سورة الطور : « وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد فهم من هذه الآية وتلك ، أن دخول الجنة أولا بالصلاح ،وأساس الصلاح الإيمان ويكمله العمل الصالح ، وأما إلحاقهم بأقاربهم فى منازلهم العالية فيكون بالانتساب إليهم أصولا أو فروعا أو أزواجا.ولايحدث هذا الإلحاق إلا بعد استيفاء هؤلاء جزاء أعمالهم ، كما يصرح به قوله تعالى : «وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم

مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ». ولا يقتصر أمرهم على ذلك بل تبشرهم الملائكة بالأمن والسلام ، وذلك ماجاء فى قوله سبحانه : «وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ » أى تلك المنازل فى منازلهم الكريمة بالجنة ، يدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبوابها قائلين لهم :

٢٤ - (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) : أى أن الملائكة يبشرونهم بدوام السلامة من المخاوف بسبب صبرهم على التكاليف واحتمالهم آلام الحياة ومتاعبها ، وكأنهم يقولون لهم لئن تعبتم فى دنياكم فلقد استرحتم ونعمتم وسعدتم فى أخراكم ، ولم يعد للخوف والمشقة سبيل إليكم .

(فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) :

يحتمل أن تكون هذه الجملة مما يقوله الملائكة للصابرين ، ويحتمل أنها ثناءٌ من الله على الجنة التى جعلت عاقبة لدنياهم ومدح منه لها ، أى فنعم عاقبة الدار التى كنتم فيها حين التكليف ، هذه الجنة التى آل أمركم إليها حين الجزاء ، وكيف لا تكون كذلك وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ) : المراد بعهد الله ما أوجبه عليهم من طاعته ، وبنقضه عصيانه .

(مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) : من بعد توثيقه وتوكيده . (اللَّعْنَةُ) : الطرد من رحمة الله .

(سُوءُ الدَّارِ) : أى سوءُ عاقبة الدار الدنيا ، أو هو من إضافة الصفة للموصوف ، أى الدار السيئة ، وهى جهنم فهى دارهم ومأواهم – وبئست الدار والمأوى . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه . (ويَقْدِرُ) : يضيق . (مَتَاعٌ) : شئٌ قليل يتمتع به ، كزاد الراكب .

التفسير

٢٥ – (وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ..) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة حال أهل الوفاء بعهد الله وحسن مآلهم ، جاءت هذه الآية لتبين سوء حال من يتصفون بنقائض صفاتهم ، وسوء مآلهم يوم الجزاء ،وقد تحدثنا فى الآيات السابقة عن الوفاء بعهد الله بشئ من التفصيل ،وتحدثنا هنا فى المفردات عن معنى هذا العهد إجمالا ، ونَزيد عليه ماذكره الإمام الرازى فنقول : فسر الرازى عهد الله بما ألزمه عباده عن طريق الأدلة العقلية ؛ لأن ذلك أَوْكَدُ من كل عهد ومن كلِّ أَيْمان ، إذ الأَيمانُ إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها ، ثم قال والمراد من نقضها أن لاينظر المرءُفيها فلا يمكنه حينئذ العمل بموجبها أو بأن ينظر ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه ، أو بأن ينظر فى الشبه فلا يعتقد الحق ، والمراد بقوله سبحانه : (مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) من بعد أن أوثق الله تلك الأدلة وأحكمها بدلائل أُخرى عقلية أو سمعية ، لأنه « شىء أقوى مما دَلَّ على وجوبه فى أنه ينفع فعله ويضر تركه » : ا هـ باختصار ، ونقل الآلوسى عن بعض العلماء تفسيره للعهد بما أوصى الله به عباده من التكاليف ، وتفسيره للميثاق بالإقرار والقبول – أى من بعد إقراره وقبوله .

ومعنى الآية إجمالا : والذين لايعملون بما كلفهم الله به عن طريق الأدلة العقلية والنقلية ، من بعد ما أكد الله تلك التكاليف بمختلف الأدلة ، ويقطعون ما أمر الله بوصله من الإيمان بجميع الأنبياء الذين بعثهم الله بالحق هُدَاةً إلى البشر ، فتراهم يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض آخر ، كما يفعله أهل الكتاب حيث يكفر اليهود بعيسى ومحمد

عليهما السلام ، ويكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويقطعون أيضا ما أمر الله بوصله من حقوق الأرحام ومحبة المؤمنين وموالاتهم وغير ذلك مما تقدم بيانه فى صفات أهل الوفاء من الصبر والصلاة والإنفاق فى وجوه البر ، ودرء السيئة بالحسنة ويضيفون إلى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل أنهم يفسدون فى الأرض بالظلم وإثارة الفتن ، فهؤلاء الموصوفون بتلك الصفات السيئة لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة الله ،ولهم الدار السيئة التى جعلها الله مقرًا لهم ، وهى جهنم وبئست دارًا ومقرًا .

٢٦ - (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى أهل مكة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - نقول : وكأنها نزلت لتنعى عليهم فرحهم بالحياة الدنيا مع أنها إلى زوال ،وليبين أن سعة الرزق على الكافر ليست لإكرامه ،وتضييقه على المؤمن ليس لإهانته : فكلا الأمرين صادر من الله تعالى لحكم إلهية يعلمها سبحانه ، فقد يوسع على الكافر إملاءً واستدراجا ، فلا وجه لفرحه ، وقد يضيق على المؤمن زيادة فى أجره ، والآية دستور عام ، وإن نزلت بسبب خاص .

والمعنى :الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيق الرزق على من يشاء ، دون أن يجعل الأول برهانا على الرضا ، ولا أن يجعل الثانى أمارة على المقت والغضب ، فكلاهما يخضع لمشيئته ،وحقٌّ لربوبيته لعباده ،وهو أعلم بحكمته ، فلا يسأل عما يفعل ولايفترى عليه بالأسباب والعلل ، وقد فرح أهلُ مكة وَمَنْ على شاكلتهم بما أُوتوا من نعيم الحياة الدنيا وسعة الرزق فيها فركنوا إليها ، ولم يعملوا لما بعدها ،وما نعيم الحياة الدنيا فى جانب نعيم الآخرة إلا شىء قليل يتمتع به وليس له بقاءٌ ،كعجالة الراكب وزاد الراعى ، ولهذا لايهتم بنعيمها أصحاب المقامات العالية إذا غاب عنهم . أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : « نَامَ رسولُ الله صَلىَّ اللهُ عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أثر فى جَنْبه ، فقُلنَا يارسولَ الله : لو اتَّخَذْنَا لك وِطاءً ، فقال : مَالِي وللدُّنيا ، مَا أَنَا فى الدُّنياَ إلاَّ كَراكِبٍ اسْتَظَل تَحْت شَجَرَةٍ ثم راحَ وَتركَهَا » .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(مَنْ أَنَابَ) : من رجع إلى الحق. (تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) :تستقر وتستريح وتستأنس. (طُوبَىٰ لَهُمْ) :قال الزجاج : طوبى فُعْلَى من الطِّيب ،وهى الحالة المستطابةُ لهم .وقال ابن عباس : فرحٌ لهم وقُرَّةُ عين . وقال قتاده : حسنى لهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى ترجع إلى ما ذكره الزجاج . وقيل : هى اسم للجنة ، أو لشجرة فيها. (وَحُسْنُ مآبٍ) : وحسن مرجع .

التفسير

٢٧ ـ (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . .) الآية .

لايزال الحديث مُتَّصلا فى شأن أهل مكة ، وذكرهم بعنوان الكفر لذمهم وتقبيح حالهم . وبيان أنه السبب فى مقالتهم الآتية ، والمراد بهم عبد الله بن أبى أُميَّة وأصحابه حين طالبوا النبى صلى الله عليه وسلم بالآيات الكونية .

والمعنى : ويقول الذين كفروا من أهل مكة : هلا أُنزل على محمد آية من ربه كالتى اقترحوها عليه من سقوط السماءِ كِسَفًا عليهم ، وتحويل الصحراء إلى بساتين كأرض الشام ، وإحياءِ جدهم قصى ، وغير ذلك مما يتنافى مع الحكمة ولايناسب عصر رسالة القرآن .

وهؤلاءِ المقترحون لم يشعروا بأن القرآن الذى يتلى عليهم هو آية الآيات ، وأبقى المعجزات فما من آية جاءَ بها رسول قبله إلا أصبحت خبرا ، ولم تترك أثرا ، وهى لذلك مجال

لإنكار المنكرين ،وزعم أنها ضرب من الحكايات والأساطير ،يقولها أرباب الديانات ولا أساس لها من الصحة . ولو صحت لكانت سحرا ، أما القرآنُ فهو باق مابقي الزمان ،وإعجازه عام للإنْسِ والجان ، وهو الذى أيد معجزات الأنبياء ، وحماها من إنكار المكذبين .

(قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) :

قل لهم أيها الرسول : إن الله تعالى يتخلى عن هداية من يشاءُ من أهل الإصرار على الكفر ، فلا يوفقهم إلى معرفة مافى القرآن من آيات وإعجاز ،ولا إلى الإيمان بِهِ وبِمَا أظهر الله على يدى رسوله من سائر الآيات ، ويهدى إليه سبحانه من رجع عن العناد والمكابرة ، وألقى السمع وهو شهيد ، ثم بين حال من أناب إليه فقال :

٢٨ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) :
المقصود من الذين آمنوا الذين اتَّجهُوا إلى الإيمان لحسن استعدادهم عندما سمعوا آيات الله ، لرقة قلوبهم وصفاء نفوسهم ، وانعدام مكابرتهم ، فهؤلاء هم الذين يهديهم الله إليه.

والمعنى : ويهدى الله إليه من أناب ورجع إليه بعد الكفر حين سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، وهم الذين استعدت للإيمان نفوسهم ،واطمأنت قلوبهم بذكر الله وآياته ، ألابذكر الله وقرآنه تطمئن القلوب الصافية ،وتسكن النفوس الحائرة ، واستعمال الإيمان فى الآية بمعنى الاستعداد له والتأهب للوصول إليه يماثل استعمال المتقين فى قوله تعالى : «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » بمعنى هدى للصائرين إلى التقوى لحسن استعدادهم .

٢٩ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) :
جاءت هذه الآية لتبَشر الذين اهتدوا إلى الله فآمنوا وعملوا الصالحات ، .

والمعنى : الذين آمنوا بربهم ونبيهم وعملوا الأعمال الصالحة بعد أن هداهم الله إليه لحسن استعدادهم وصفاء قلوبهم ، هؤلاء لهم فرح وكرامة ، وحسن مرجع فى الدار الآخرة ، فإن مرجعهم إلى جنة الله ورضوانه .

(كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾)

التفسير

٣٠ ـ (كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ . . .) الآية .[1]

أى كما أرسلنا المرسلين قبلك يامحمد أرسلناك فى أمة قد مضت من قبلها أُممُ أولئك المرسلين ـ أرسلناك فى هذه الأمة ـ لكى تقرأ عليها القرآن الذى أوحيناه إليك ـ وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن لعلهم بعد سماع القرآن يثوبون إلى رشدهم ، فيؤمنون بوحدانيته تعالى ، ويدركون مبلغ نعمته ورحمته ، ومن أعظم مظاهرها إرسالك يامحمد بالهدى ودين الحق إليهم ، قل لهم أيها الرسول : الرحمن الذى كفرتم به وعبدتم سواه هو ربى وحده دون غيره ، فإنه لايستحق الألوهية أو العبادة إلا هو ، عليه اعتمدت فى الأمر كله ، وإليه مرجعى ومرجعكم ، فكيف تكفرون به وهو محاسبكم ومجازيكم ،والتعبير بقوله تعالى : « كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ » : إيذان بأنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وليسوا بدعا من الأمم ـ هذا : وقد جاء فى سبب نزول الآية أقوال . فمقاتل وابن جريج يقولان : نزلت فى صلح الحديبية حين أرادوا كتابة وثيقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلىٍّ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون : مانعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب باسمك اللهم ـ وهكذا كان أهل

---

(١) الإشارة فى (كذلك) راجعة إلى إرسال الرسل قبله وإن لم يجر لهم ذكر ، لدلالة قوله : (قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم) قاله الحسن ، وقيل الإشارة راجعة إلى إرسال محمد مؤيدا بمعجزة القرآن ، فكأنه قيل : مثل هذا الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن أرسلناك يامحمد فى أمة...الخ .

الجاهلية يكتبون - فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : «اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب . هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله . فقال أصحاب النبى : دعنا نقاتلهم ، فقال : «لا ولكن اكتب مايريدون» فنزلت . وابن عباس يقول : نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى : «اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ» .[1]

وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحجر قائلا : «يا ألله يارحمن» فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ، فنزلت هذه الآية ونزل أيضا قوله تعالى : «قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) : أزيلت من أماكنها . (يَيْئَس) : بمعنى يعلم ، كما حكاه القشيرى عن ابن عباس ، وذكره بهذا المعنى الجوهرى فى الصحاح ويرى هذا الرأى مجاهد والحسن وأبو عبيدة ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرى .

أقول لهم بالشعب إذْ يَيْسَرُونَنِى . . أَلم تيئسوا أَنِّى ابنُ فَارِسِ زَهْدَم

وييسرونني من الميسر - ويُرْوَى يأْسرونني من الأَسر[2] - انظر القرطبى . وقال رباح بن عدى

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١١٠ . (٢) وكان الشاعر قد أسر ؛ فضربوا عليه بالميسر يتقاسمون فداءه .

ألم ييئس الأقوام أنى أنا ابنه : وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا .

وهو بهذا المعنى فى لغة النخع - كما حكاه الفرَّاء عن الكلبي - انظر القرطبي - وقيل فى لغة هوازن كما قاله القاسم بن معْن ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى التفسير . (قارعةٌ) : مصيبة تصيبهم - من قَرعه إذا أصابه ، والأصل فى القرع - الضرب ، فكأنها إذ تصيبهم تدق قلوبهم وتضربها .

التفسير

٣١ - (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) :

حكت الآية (٢٧) من هذه السورة اقتراحهم آيات كونية على الرسول ، إذ قالوا : «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ» ، ثم نَعَتْ تلك الآية المذكورة وما بعدها عليهم ضلالهم ، وبينت أن ذكر الله - وهو القرآن - تطمئن به القلوب ؛ فهو خير لهم مما اقترحوه من الآيات ، ووعدت المؤمنين الصالحين بالجنة ؛ وبينت لهم أن الرسول إنما أُرسل بمعجزة القرآن ليتلو عليهم الذى أوحاه الله إليهم ؛ فهو المعجزة الباقية مابقى الزمان دون سائر المعجزات ، فإنها تصبح خبرا بعد عين ، وحكاية ترْوَى بعد الرسول الذى جاء بها ؛ فتكون فى الأجيال التالية عرضة للتصديق والتكذيب ، وما كذلك القرآن .

وجاءت هذه الآية لتبين عظمة القرآن ورجحانه على مايقترحونه من الآيات . يروى أن نفرا من مشركى قريش فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فقال له عبد الله : إنْ سَرَّك أن نَتَّبِعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تتسع أرضنا الضيقة ؛ واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا حتى نغرس ونزرع ، فلست كما زعمت - بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مِيرتَنَا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا ، فقد سخرت لسليمان الريح كما زعمت ، فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وأحْى لنا قَصَب [1] جدك أو مَنْ شئت من موتانا نسأله ، أحقٌّ

(١) القصب : العظم المستطيل الأجوف .

ماتقول أم باطل ، فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله هذه الآية والآيات التى قبلها للرد عليهم .

والمعنى : ولو أن أىَّ قرآنٍ تسير به الجبال وتزول عن أماكنها حين يقرأ عليها ، أوتقطع وتُشَقَّقُ به الأرض أنهاراً وعيونا تروى بمائها الأرض بعد إزالة جبالها ، أو تكلم به الموتى لتصبح أحياء ، لكان الذى يحدث عنده كل هذا هو القرآن الذى أنزله الله علىّ لأبلغكم إياه ، لانطوائه على بيان عجائب قدرة الله وعظيم جلاله ، ولأنه كلام الحق سبحانه ، الذى يقول للشىء « كن فيكون » ولكن القرآن لم ينزل ليحقق لكم بذاته هذه المطالب الكونية من الينابيع وتسخير الرياح وغيرهما ، بل نزل ليرشدكم إلى وسائل تحقيقها ، ويعلمكم بذل الجهد العقلى والعملى لكى تحصلوا عليها ـ فإن العالم الأكبر ينطوى فى الإنسان بعقله وذكائه وقدرته وقواه التى أودعها الله فيه .

وليعلم العاقل أن الهدف الأول للقرآن هو معرفة الله وأداءُ واجباته ، والعمل للدنيا والآخرة ـ فقد مضى الزمن الذى كان يرتزق فيه الكسالى من دعاء أنبيائهم ، حيث كانوا يحصلون به على المن والسلوى ونحوهما ، ويحصلون على الماء بالمعجزات ، وجاء الزمن الذى يبرز فيه المولى سبحانه خيرات الأرض والماء والهواء والطاقة بجهد الإنسان وعرقه ، واستخدام الطاقات التى أودعها الله فيه ، وهذا ما عنى القرآن بتوجيه البشر إليه ، كما فى قوله تعالى : « فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » . وقوله : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَاتُوعَدُونَ » . وقوله : « والخَيْلَ والْبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ » وقوله : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ » . وقوله : « فاعْتَبِرُوا يا أُولِى الْأَبْصَارِ » .

وغير ذلك من الآيات التى تحض على النظر والاستنباط ، والانتفاع بخيرات الله ونعمه بالجد والاجتهاد والكدح .

ومن أجل هذا المنهج السديد الذى رسمه القرآن لأُمة القرآن ، امتلك المسلمون مفاتيح العلم ، وتمكنوا من ولوج أبوابه إلى معاقد العز والرفعة والمجد فى كل ناحية من نواحى الكرامة ـ والأُمم من حولهم يغطون فى سبات عميق ، وينتظرون موائد تنزل لهم من السماء ، أو يفسدون فى الأرض بغير الحق .

ذلك هو شأن القرآن الذى لم يحرك قلوب قريش ليؤمنوا به ، ويكتفوا بمعجزته ، مع أنه تعالى يقول فى شأنه : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

واعلم أن لكل نبى معجزة أيده الله بها تناسب أمته ومدة بقائها على شريعته ، واختار الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة القرآن ليكون دستورا لها وآية إلى أن تقوم الساعة ، فإن الله تعالى جعلها الأمة الخاتمة للرسالات ، فكانت معجزةُ نبيِّها صلى الله عليه وسلم ، باقيةً ببقائها ، وهاديًا يهديها ما بقى الزمان . ولقد أوتى النبى صلى الله عليه وسلم غير القرآن معجزات كثيرة ، ولكنها لم تكن للتحدى ، بل لتكريمه صلى الله عليه وسلم . ورحمة بالمؤمنين فى مواقف الشدة ، ومعظمها ظهر فى المدينة كإنزال الغيث ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل .

وقليل منها ظهر بمكة كانشقاق القمر ، ووصْفِه لبيت المقدس وأحوال عير قريش صباح ليلة الإسراء والمعراج ولكن الله لم يأذن له بالتحدى بشىء من ذلك ، ولم يجعل تلك الخوارق آية رسالته الحاسمة ، بل جعل آيتها دستورها الباقى بقاء الزمان ، وهو القرآن ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَامِنَ الأَنبياءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُه آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ . وإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أخرجه البخارى فى صحيحه .

(بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعًا) : أى لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى لكان هذا القرآن ، لكنَّ هذا لم يحدث بل حدث سواه ، لأن الأمر لله وحده يفعل ما يريد وفقا لمشيئته وحكمته ، التى اقتضت أن تكون آية النبوة فى الإسلام هى دستوره ، وهو القرآن لا غيره من الخوارق ، ولهذا لم يأذن الله للرسول بأن يتحدى بما ظهر على يده من الخوارق سواه .

(أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) :

لم ينزل القرآن بلغة قريش وحدها . بل اشتمل عليها وعلى غيرها حتى يعلم العرب أن القرآن بلغتهم جميعًا . وهذا ماعناه النبى صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن على سبعة أحرف

وكلمة « ييئس » هنا بمعنى يعلم فى لغة النخع - كما حكاه الفراء[1] - وفى لغة هوازن - كما حكاه مجاهد والحسن والقاسم بن معين.[2]

والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أنه لو يشاء الله هداية الناس جميعا لفعل. ولكنه جعل سبيل الهداية إلى الحق اختيار العبد وفعله، بعد أن يسر الله له أسبابها وأزاح موانعها.

ومن العلماء من حملها على معناها المعروف وفسر الآية عليه كما يلى: أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان المشركين لأنه لو يشاء الله لهداهم جميعا، وهم لم يهتدوا بل أصروا على الكفر، فكان حقٌّ المؤمنين أن ييئسوا من إيمانهم، ويدركوا أنه تعالى لم يشأْ هدايتهم.

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ) :

أى ولايزال الكافرون من أهل مكة تنزل بهم بسبب مافعلوه من الكفر بالله وإيذاء المؤمنين وإخراجهم من ديارهم - تنزل بهم بسبب ذلك - داهية تقرعهم وتقلقهم من آن لآخر، كالذى كان يحدث لهم حينا بعد حين من القتل والأسر وأخذ غنائمهم فى غزوات المسلمين وسراياهم، أو تحل تلك الداهية فى مكان قريب من دارهم (مكة) فيتطاير إليهم شررها ويصابون بلهيبها[3]، حتى يأتى وعد الله بفتح مكة وسقوط معقل الشرك، فيتم للمؤمنين النصر، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا، إن الله لايخلف وعده فى الأمر كله.

ويصح أن يراد من الذين كفروا، كل من كفر بالإسلام، فتكون الآية وعيدا لمن يؤذى المسلمين بانتقام الله فى الدنيا من آن لآخر، حتى يأتى وعد الله بموتهم أو بالقيامة فيجزيهم شر الجزاء، وإلى هذا الرأى مال الحسن وابن السائب.

---

(١) عن الكلبى، وحكاه الآلوسى عن ابن الكلبى.

(٢) انظر القرطبى والآلوسى.

(٣) ومن ذلك ما كان من صلح الحديبية، حيث عاد عليهم بالضرر وعلى المسلمين بالخير.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفـردات :

(فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى أمهلتهم وتركتهم ملاوة [1] من الزمان دون عقاب .

(قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) : رقيب ومهيمن عليها .

التفسير

٣٢ـ (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

فى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من الاستهزاء والتكذيب واقتراح الآيات .

والمعنى : ولقد استهزأ الكفار السابقون ، برسل كثيرين بعثناهم من قبلك إليهم لهدايتهم ، وأيدناهم بالمعجزات الشاهدة بصدقهم ، فلم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وأهانوهم فلست وحدك

(١) الملاوة : الفترة من الزمان وهى مثلثة الميم .

فى استهزاء الكافرين بك فإن ذلك أمر مطرد يلقاه رسلنا من أقوامهم ، فأمهلت أولئك المستهزئين لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ثم أخذتهم بعقابى حين لم ينفعهم الإمهال ، وكان عقابى لهم هائلا ، حيث لم يبق من الكافرين ديارٌ .

والمقصود من الاستفهام فى قوله تعالى: « فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » التَّعَجيب من شدة العقاب وفظاعته .

٣٣ـ (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ) :

هذا الاستفهام مترتب على ما سبق بيانه ، من أن الأَمر كله لله وأنه يهدى من يشاءُ ويخذل من يشاءُ من أهل الضلال ، وأنه يملى للكافرين ثم يأْخذهم بذنوبهم إلى غير ذلك مما تقدم .

والمعنى : أفمن كان شأْنه ما تقدم من هيمنته على كل نفس يعلم سرها ونجواها ، ويجزيها بما كسبت من خير أو شر . أفمن كان كذلك يشبه الأَصنام التى ليس لها عليهم من سبيل وقد جعلوها له شركاءَ مع ضعفها وعدم فائدتها ، ثم أمر الله رسوله أن يبكتهم فقال :

(قُلْ سَمُّوهُمْ) : أى قل لهم أيها الرسول تأْنيبًا وتقريعًا : اذكروا لى أسماءهم وأوصافهم التى جعلتهم فى نظركم يستحقون العبادة مع الله ، ولن يجدوا لهم من الأَوصاف ما يستحقون به شيئًا من التكريم فضلا عن العبادة .

(أَمْ تُنَبِّئُونَه بِمَا لَايَعْلَمُ فِى الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ) :

أى بل أتخبرون الله بشركاءَ زاعمين استحقاقها للعبادة وهو لايعلمها فى أرضه ، مع أنه سبحانه لا تغيب عن علمه ذرة فى الأَرض ولا فى السماءِ ، بل أتخبرونه عن ألوهيتها بظاهر من القول من غير أن يكون لها حقيقة ولا دليل ، كتسمية القبيح وَسيمًا والزنجى كافورا .

(بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) : بل زين الشيطان لهؤلاءِ المشركين باطلهم وصدهم عن سبيل الحق .

(ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) : ومن يتخل الله عن معونته بسبب إصراره على الكفر فليس له من هاد يوصله إلى الحق ، وينجيه من عاقبة ضلاله .

٣٤- (لَهُمْ عَذَابٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ) :

أى لأولئك المشركين عذاب فى الحياة الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والمحن ، ولعذاب الآخرة أكثر من عذاب الدنيا مشقة لشدته ودوامه ، وما لهم من عذاب الله من حافظ يعصمهم ويقيهم ، نسأل الله السلامة وحسن العاقبة .

(* مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مَثَلُ الجَنَّةِ) : المثل هنا بمعنى الصفة العجيبة . وأصله بمعنى الشبيه والنظير .

(أُكُلُهَا دَائِمٌ) : أى ثمرها باق لا يغيب ولا ينقطع .

(عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى مآلهم وعاقبتهم .

التفسير

٣٥- (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه فى الآية السابقة عقاب الكفار فى الدنيا والآخرة ، عقبها بهذه الآية لبيان ثواب المتقين فى الآخرة ، والمقارنة بين عاقبتهم وعاقبة الكافرين .

والمعنى : صفة الجنة التى وعدها الله عباده المتقين وحالتها العجيبة الشأن أنها تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار بين جوانبها وحيث شاء أهلها ، كما قال تعالى : « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » .

فهم يصرفونها حيث شاءوا وكيف أرادوا ، وتلك الأنهار كما قال سبحانه فى سورة محمد : « فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غيرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » .

ومن صفتها : (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) : أى ثمرها باق لا ينقطع فى أى وقت من الأوقات وظلالها باقية لا تنحسر ، مع اعتدال مناخها ، وطيب هوائها . كما قال سبحانه : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً »(١)

(تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ) : أى هذه الجنة العظيمة الشأن عاقبة الذين اتقوا ربهم فتجنبوا الكفر والمعاصى ، وعاقبة الكافرين به وبنبيه النار ، وشتان بين العاقبتين ، فما بال الكافرين لا يعقلون .

(وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الْكِتاب) : المراد به هنا التوراة والإنجيل .

(الْأَحْزَاب) : الجماعات القوية والأقوام المتشابهون فى ميولهم وعقائدهم .

(مَئَاب) : مرجع ومصير .

---

(١) الآيتين ١٣ ، ١٤ من سورة الإنسان .

التفسير

٣٦ـ (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ...) الآية .

يرى الإمام ابن عباس رضى الله عنه أن المقصود من الذين آتيناهم الكتاب هم مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كعبد الله بن سلام وكعب ،ومؤمنى نجران والحبشة فهؤلاء كانوا يفرحون بالقرآن حين يسمعونه إيمانًا منهم بأنه كتاب الله الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر – وقيل : إن المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون وقد كانوا يفرحون بنور القرآن الكريم وتوالى نزول آياته .

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) : المراد بالأحزاب على رأى ابن عباس : كفرة اليهود والنصارى الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة والبغضاء ، ككعب ابن الأشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران وأتباعهما ، أما على الرأى الثانى القائل بأن الذى يفرح هم المسلمون فالمراد بالأحزاب كفار اليهود والنصارى ، والمراد من (بعضه) الذى ينكره أهل الكتاب هو الشرائعُ التى جاءت مخالفة للتوراة والإنجيل تبعًا لتغير الزمان والأجيال ، أو هو مالا يوافق ماغيروه وبدلوه فى كتبهم ، وأما ما يوافق مافى كتبهم فإنهم لاينكرونه وإن لم يفرحوا به .

(قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) : أى قُل يا محمد صادعًا بالحق غير مكترث بإنكارهم بعض القرآن ، قل لهم : ما أمرنى الله فى القرآن الذى تنكرونه أو تنكرون بعضه إلا بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئًا فى عبادته ، وقد أمرنى أن أدعوكم إلى ذلك بقوله سبحانه : « قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) : أى إلى عبادة الله وحده أدعو الناس جميعًا ، وإليه وحده مرجعى ومرجعهم للجزاء ، فلذلك لا أُقِرُّ ما أنتم عليه من اتخاذ اليهود عزيرًا ابنًا لله واتخاذ النصارى

المسيح ابنًا له كذلك لاستحالة ذلك على الله تعالى ، وإذا كنت أدعوكم إلى وحدانيته ، ولابرهان لكم على مزاعمكم ، فلماذا لا تستجيبون لما دعوتكم إليه ، وكل الآيات تدل عليه وترشد إليه.

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) : أى أنزلنا القرآن حاكماً للناس فى قضاياهم بلسان العرب

(وَلَا وَاقٍ) : أى ولا حافظ . من وقاه يقيه وقاية ؛ أى حفظه .

التفسير

٣٧ - (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ...) . الآية .

أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتاب بلغاتهم وألسنتهم ، أرسلناك وأنزلنا عليك القرآن عربيًّا بلسانك ولسان قومك ، ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره والرجوع إليه فى الأحكام ، وإنما سمى القرآن حكمًا لما فيه من الأحكام والشرائع التى يحتاج إليها المكلفون ، وتقتضيها الحكمة ليصلوا بها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وكان عربيا لأن الأمة التى بعث منها الرسول لغتها العربية ، فجاء القرآن بلغتهم ليفهموه ويبلغوه لغيرهم .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) : أى ولئن اتبعت يا محمد أهواءَ الكافرين التى يدعونك إليها مخالفةً لما أُنزل إليك من الحق كاستقبال بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وكعبادة غير الله ابتغاءَ مرضاتهم .

(مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) : أى بعد ثبوت العلم عن طريق الوحى والحجج الساطعة والبراهين القاطعة .

(مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنَ وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ) : أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينقذك منه ، ويقيك من عذابه إن أراد عذابك . والخطاب هنا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد الأُمة ، وفى هذا وعيد لأهل العلم إن هم حادوا عن الطريق واتبعوا سبل أهل الضلالة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) ؛ الأَجل : الوقت والمدة ، والكتاب ؛ الحكم المعين الذى يكتب على العباد حسب ما تقتضيه الحكمة .

التفسير

٣٨ - (ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ...) الآية .

فى هذه الآية جواب عن شبهات أوردها أعداءُ النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قولهم : مانرى لهذا الرجل همة إلا النساء ، ولو كان رسولا من عند الله حقًّا لما اشتغل عن رسالته بالنساءِ ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفى هذا تذكير بما كان عليه سليمان وداود عليهما السلام حيث كانت لهما أزواج كثيرات وذرية كثيرة ، ولم يقدح ذلك فى نبوتهما ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اقتصرت حياته الأُولى على زوجة واحدة إلى سن الثالثة والخمسين فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حدثت ظروف ودواع اقتضت الإصهار إلى القبائل لمصلحة الإسلام ، فكان من الخير أن تتعدد زوجاته ، بذلك تظهر الحكمة فى هذا التعدد فلا مجال لإثارة الشبه حول هذا التعدد فى أواخر حياته ، لأنه لايعقل أن يكون ذلك لدواعى الشهوة فى سن الشيخوخة .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين من قبلك أيها الرسول شأنهم كشأنك ، حيث جعلنا لهم أزواجًا كثيرات وذرية كثيرة ، فلست فى ذلك بدعًا من الرسل .

وحين قالوا : لو كان رسولا لجاء بالآيات التى طلبناها منه . رد الله عليهم بقوله سبحانه :

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : أى ليس فى وسع رسول من الرسل أن يأتى بمعجزة وفق ما يقترحه قومه إلا متى شاء الله ، فهو وحده يحكم مايشاء ويفعل مايريد .
ثم بين الله سبحانه الحكمة فى تغيير الشرائع بقوله جل شأنه :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) : أى لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله . وينتهى بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع ، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد فى المبدأ والمعاد ، ويترتب على ذلك أن الشريعة تختلف على حسب اختلاف أحوال الناس التى تتغير بتغير الأوقات وتتابع الأزمان والأجيال . ومثل ذلك كمثل اختلاف العلاج باختلاف أحوال المرضى وبحسب الأوقات .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ٣٩)

المفردات :

(يَمْحُو) : المحو الإزالة ، والمراد به هنا نسخ الشرائع والأحكام وتغييرها .
(أُمُّ الكِتَابِ) : أصل الكتاب ، والمراد به علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

التفسير

٣٩ـ (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ . . .) الآية .

أى يمحو الله ما يشاءُ من الشرائع بالنسخ ، ويبقى ما يشاءُ منها ثابتًا كما هو فلا ينسخه ولا يبدله ، أو يأتى بشرع جديد مكان شرع سابق ينسخه به ، فإن الحكمة تقتضى أن ينسخ الله ما يشاءُ أن ينسخه من الأحكام والشرائع بحسب الوقت ويثبت بدله أو يبقيه على حاله من غير نسخ ، لأن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد فى المبدأ والمعاد .

واعلم أنه سبحانه وتعالى جعل الشرائع كلها متفقة فى الأصول ، فكلما أتى نبى جاء بشريعة متفقة مع الشرائع السابقة فى تلك الأصول التى لا سبيل إلى تغييرها ، ومن ذلك ما تضمنه قوله تبارك وتعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . » الآيات من سورة الأنعام. فهذه الأصول وأمثالها لاتتغير ولا تتبدل بتغير الرسالات والكتب السماوية ، أما الفروع فإنها عرضة للتغيير والتبديل ، كطريقة الصيام وزمنه ، ومقادير الزكاة والأصناف التى تزكى ، وكتحليل بعض المحرمات ، وفى ذلك يقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . ». وغير ذلك مما يتغير بتغير الأجيال وأحوالهم . هذا ، ويمكن أن تكون الآية الكريمة عامة فى كل ما يمحوه الله ويثبته من شئون الكون ، فالأمر كله لله يفعل ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بحكمته .

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) : أى وعند الله تعالى أصل الكتاب وقد فصل فيه كل ما يجريه سبحانه فى الشرائع من المحو والإثبات ، وفى الكون من التغيير والتبديل ، فكل ذلك لايثبته الله ابتداء ، وإنما هو قضاء عنده قديم يبرزه فى وقته وحينه الذى حدده سبحانه وتعالى طبقًا لحكمته ، وقد عرفت فى المفردات أن المراد بأم الكتاب علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ) : ما هنا لتأكيد معنى الشرط ، أى وإن أريناك ، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية أو لإفادة تجدد الوعيد .

(مِنْ أَطْرَافِهَا) : الأَطراف ؛ الجوانب .

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) : أى لا راد له . والمعقب هو الذى يكر على الشىء فيبطله . ويقال لصاحب الحق الذى يطالب به معقب ، لأَنه يتتبع غريمه بالاقتضاء والطلب .

التفسير

٤٠ – (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) : أى إن أريناك يا محمد مصارع أعدائك المصرين على الكفر وما وعدناهم من إنزال العذاب بهم ، فذلك انتقام عاجل لك من أعدائك ، وإن توفيناك قبل حلول وعيدنا بهم ، فلا تجزع لذلك ، فما عليك إلا تبليغ الدعوة وتبليغ الوعيد على الكفر بها ، وعلينا وحدنا حسابهم وجزاؤهم على كفرهم ومعاصيهم ، فى الوقت الذى تقتضيه الحكمة فإننا نعلم من المصالح الخفية مالا تعلم ، فدع الأَمر لنا وبلغ ما أُنزل إليك من ربك ، وفى التعبير بقوله : « نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ » إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم سيرى بعض الموعود ، ولهذا بشره الله عقب هذه الآية بظهور تباشير النصر بقوله :

٤١ – (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : أى أينكر المشركون تنفيذ وعيدنا ونصرنا لرسولنا ، ولم يروا أننا ننقص أرض الكفر من جوانبها ونواحيها ، بفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا وإلحاقها بأَرض الإسلام ، وقتل بعض من يقف فى سبيل الدعوة أو أسرهم أو إجلاء البعض الآخر ، أليس هذا بعض الذى نعدهم ؟

(وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) : أى والله يحكم فى خلقه بما يشاءُ لا يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير ، وقد جرت سنته أن الأَرض يستعمرها عباده الصالحون ، بإقامة موازين العدل فيها والسير على نهج الحق – وقد حكم للإسلام وأهله بالغلبة والإقبال ما داموا فى طاعة الله ، يجاهدون فى سبيله ، واثقين من صدق وعده بالنصر لمن ينصرونه ، وكما حكم للإسلام وأهله بالإقبال والنصر لأَنهم أهل الحق ، حكم على الكفر وأهله بالإدبار و الانتكاس ، لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأَرض .

(وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : أى سيحاسبهم ويجازيهم بعد قليل فى الآخرة بألوان العذاب ، وكل آت قريب ، وذلك بعد تحقيق الوعيد عليهم فى دنياهم بالقتل والأسر والإجلاء .

(وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(مَكَرَ) : المكر ؛ هو تدبير المكروه فى خفية .

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى أنه تعالى يعلم المكر كله ، فلا تخفى منه خافية عليه سبحانه.

(عُقْبَى الدَّارِ) : أى عاقبة دار الدنيا .

(عِلْمُ الكِتَابِ) : أى علم القرآن وما هو عليه من البيان المعجز ، والحكمة التى لاتضارع ، أو علم التوراة والإنجيل وما فيهما من البشارات برسول الله والإسلام .

التفسير

٤٢ـ (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مكر الذين كفروا من قبل مشركى مكة برُسُلِهم ، وكادوا لهم . وكفروا بهم ؛ كما فعل نمروذ وقومه بإبراهيم ، وفرعون وقومه بموسى ، واليهود بعيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين المفسدين .

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى فالله تعالى محيط بمكرهم كله ، فلا يغيب عن علمه شىء منه ، وهو قادر على إحباطه والانتقام من مدبريه ، وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأمين له من مكرهم ، وقد صارحه الله بذلك حيث قال له : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] .

(١) المائدة : ٦٧

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) : من خير أو شر ، فيثبت أولياءه ، ويحميهم من شرور أعدائهم ، ويعاقب الماكرين بهم بما يستحقونه من عقاب ، وفى هذا تهديد ووعيد للكافرين الماكرين أكده بقوله .

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) : أى وسيعلم الكفار إذا قدموا على ربهم يوم القيامة لمن العاقبة المحمودة ، لهذه الدار الدنيا ، أهى لهم ؟ أم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومن تبعه من المؤمنين ، ولاشك أنهم سيعلمون يومئذ أن العاقبة الحميدة للمتقين ، كما قال تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[١] .

٤٣ـ (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) : أى ويقول المشركون من العرب ، الجاحدون لنبوتك : يا محمد لَسْتَ برَسول من عند الله ، وإنما أنت متقول على الله تعالى ، يقولون له ذلك بعد أن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، ليعالجوا بهذا الإنكار قصورهم وضعف حجتهم ، فهم حينما ينكرون لا مستند لهم فى إنكارهم ، بل قامت الأدلة الواضحة على أنه مرسل من عند ربه ، فما أكثر المعجزات التى أيده الله بها .

(قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ) : أى حسبى الله شاهدا لى بتأييد رسالتى وصدق وأننى قد بلَّغت ، وشاهدا عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) : مِمَّن أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل فإنهم، كانوا يجدون البشارات عنه فى كتبهم ، وحاصل الجواب بذلك : لستم بأهل للحكم فى شأنى ، فاسألوا أهله من أهل الكتاب فإنهم بجواركم ، كما قال تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ »[٢] .

والله أعلم

(١) سورة القصص ٦٣ (٢) سورة الأنبياء ٧٧

سورة إبراهيم

آياتها اثنتان وخمسون ، وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر ، وهو الذى عليه الجمهور ، وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا آيتين منها فهما مدنيتان ، وهما قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) »

فقد نزلتا فى قتلى بدر من المشركين ، أخرجه البخارى عن ابن عباس وأبو الشيخ عن قتادة .

المقاصد التى تناولتها السورة

اشتملت سورة إبراهيم على المقاصد التالية :

١ - الحديث عن القرآن الكريم وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وأثرهما فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بفضل الله وهداه ، وإنذار الذين ينصرفون عن الهدى بالهلاك إذا أصروا على الكفر والضلال .

٢ - تقرير أن الله سبحانه أرسل الرسل بلغات أقوامهم حتى يستطيعوا فهمها وأداء شعائرها ولتقوم عليهم حُجة الله .

٣ - ذكر نبذة من قصة موسى عليه السلام مع قومه ، وتذكيره إياهم بنعم الله ومايجب عليهم له سبحانه من عبادة وشكر .

٤ - ذكر نبذة من أخبار الرسل مع أقوامهم ، وماقابلوا به رسالاتهم من جحود وإنكار وانتقام الله من هؤلاء المعاندين المكابرين .

٥ - تقرير ضلال الكفار وحبوط ما قدموه من أعمال طيبة ، لأنها لا تقوم على الإيمان .

٦ـ ذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث يتبرأ أتباع الكفار من رؤسائهم وحيث يتبرأ الشيطان ممن أغواهم ودفعهم إلى الفساد . على حين يَمُنُّ الله على عباده الأتقياء بأحسن الجزاء .

٧ـ ذكر الآثار الطَّيبة للكلمة الطيبة، وأن الله يبارك فيها وفيمَنْ دعا إليها ومن استجاب لها ، وذكر الآثار السيئة للكلمة الخبيثة وأن الله يمحقُها ويمحق من دعا إليها ومن استجاب لها من المنحرفين .

٨ـ الدعوة إلى التعجب ممن يقابلون نعم الله بالجحود و الكفران ، ويضلون أقوامهم فيقودونهم إلى النار .

٩ـ دعوة المؤمنين إلى التمسك بإيمانهم وأداء شعائر دينهم ، وإلى شكر نعم الله العديدة عليهم ، وأنها لا يمكن إحصاؤها سواءٌ فى أرجاءِ الأَرض أم آفاق السموات .

١٠ـ تذكير قريش بنعم الله عليهم ، واستجابته لدعاءِ إبراهيم عليه السلام من أجلهم وأن عليهم أن يعْبُدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

١١ـ إنذار المشركين بما أَعَدَّه الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة ، وتأكيد هذا الإنذار وأنه واقع بهم لا محالة « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

١٢ـ تقرير ما ورد فى السورة الكريمة من تبشير للمؤمنين وإنذار لِلْكَافرين ، وأَنَّ فى هذا بلاغًا للجميع ليسرعوا بالعودة إلى توحيد الله وعبادته ، وليعلموا أنما هو إلٰه واحد ، وإيقاظ العقول لتتجه إلى الإيمان قبل فوات الأَوان .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾)

المفردات :

(الر) : هذه وأمثالها من فواتح بعض السور ، قيل إنها أسماءٌ لها ، وقيل أسرار محجوبة ، وقيل إنها رمز للتحدى ، وقيل إشارة لابتداءِ كلام وانتهاءِ كلام ، وقيل غير ذلك .

وقد سبق تفصيل الكلام فيها أول سورة البقرة ، فارجع إليه إن شئت .

(الظُّلُمَاتِ) : الضلالات ، فإنها ظلمات معنوية .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الهدى ، فإنه نور معنوى يهدى إلى الحق .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : بتيسيره وتوفيقه.

(إِلَى صِرَاطِ) : أى إلى طريق .

(الْحَمِيدِ) : أى المحمود ، والمراد أنه تعالى مستحق للحمد لذاته وإن لم يحمده الناس .

(وَوَيْلٌ) : الويل : الشر والهلاك .

(يَسْتَحِبُّونَ) : يختارون .

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : يمنعون غيرهم عن دينه الذى يوصل إلى مرضاته وثوابه .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى ويطلبونها. والضمير عائد على السبيل فإنها مؤنثة ، أى ويطلبون لسبيل الله العوج .

التفسير

١ - (الٓر) :

أجملنا الكلام على (الٓر) فى المفردات . وأحلنا القارىء على ماكتبناه مفصلا عن الفواتح الهجائية فى أول سورة البقرة فارجع إليه إن شئت .

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) : أى هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم .

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : أى بعثناك بهذا القرآن وأنزلناه إليك لِتُخرِجَ الناس عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم من ظلمات الكفر والجهل والحياة الضالة إلى نور الإيمان والعلم والحياة البارة الرشيدة—لما اشتمل عليه من الآيات الباهرات التى تحث على التفكر والتدبر ، والنظر فى حقائق الكون الدالة على وحدانية الله وتفرده بالخلق—والإبداع . . . ولما حواه من المنهج السديد الذى تسعد به البشرية كلما سلكته ، وتشقى كلما ابتعدت عنه .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، فهو الهادى لمن أراد له الهداية على يدى نبى هذه الأُمة صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وبما تركه لأُمته من كتاب الله تعالى وسنته بعد انتقاله إلى ربه .

(إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : أى إلى الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم ، طريق العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع ، فهو القاهر لكل ما سواه المستحق للحمد ، ويلاحظ أن « صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » بيان للنور فى قوله: « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . فهوالنور الذى أخرجهم من الظلمات إليه فى العقائد والأَخلاق والتشريعات الرشيدة .

٢ ـ (اللهِ[1] الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) : أى هذا الكتاب أنزلناه لتخرج الناس إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى الكون ملكًا وإبداعًا وتصرفًا ، فهو سبحانه يتصرف فيه وحده حسب ما تقتضيه حكمته الأزلية.

وقرأ نافع وابن عامر : (اللهُ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموات . . .) برفع لفظ الجلالة ، على الاستئناف .

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عذَابٍ شَدِيدٍ) : هذا وعيد لمن كفر بالقرآن وخالف من أنزله ، وكفر بمن أنزل عليه ، أى وهلاك يوم القيامة ناشىء من عذاب شديد لمن كذبك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد للفرد الصمد، القوى المنتقم الجبار . . وقد وصف الله الكافرين بصفات ثلاث ـ الأولى فى قوله :

٣ ـ (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) : أى ويل للكافرين الذين يختارون الحياة الدنيا وما فيها من شهوات مهلكات ، ويؤثرونها على الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم.

ـ والصفة الثانية فى قوله سبحانه :

(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واتباع ما جاء به رسوله محمد بن عبد الله ، وذلك لما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، والبعد عمًّا يقرب من الرحيم الرحمن .

ـ والصفة الثالثة فى قوله تعالى :

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يطلبون لها الميل والزيغ لتتفق مع أهوائهم وشهواتهم التى هى ، أبعد ما تكون عن صراط الله المستقيم ، وبعد أن وصفهم بهذه الصفات ، قضى بضلالهم فقال :

(أُولَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : أى أولئك الموصوفون بإيثارهم الدنيا وزهرتها ، وصدهم عن الدين ، وابتغائهم له الزيغ والعوج ، أولئك فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم والحالة هذه هداية ولا رشاد .

(١) بجر لفظ الجلالة بدلا من العزيز الحميد أو عطف بيان له ، وبه قرأ السبعة عدا نافع وابن عامر فقد قرآ برفع لفظ الجلالة ... كما سيأتى فى الشرح .

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ
ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾)

المفـردات :

(بِلِسَانِ قَوْمِهِ) : أى بلغة قومه .

(بِآيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يد موسى عليه السلام وهى : الطوفان – والجراد – والقمل – والضفادع – والدم – والعصا – ويده – والسنون – ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

(مِنَ الظُّلُمَاتِ) : من الكفر والجهالات المشبهات للظلمات .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو النور الهادى إلى سواء السبيل .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) : أى بوقائعه التى وقعت على الأمم السابقة ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بحروبها وملاحمها .

(صَبَّارٍ شَكُورٍ) : كثيرَ الصبر ، كثير الشكر .

التفسير

٤ – (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . .) الآية .

أى وما أرسلنا قبلك من رسول إلا بلسان القوم الذين أرسله الله إليهم ، ليبين لهم شريعة ربهم فى سهولة ويسر ، وليقطع أعذارهم وتقوم به حجة الله عليهم ، ومحمد

صلوات الله وسلامه عليه وإن بعث إلى الناس جميعًا وألسنتهم مختلفة فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ليحملوا معه عبء الدعوة ، ويبينوا الدين لمن كانوا على غير لسانهم ، ويترجموه حتى يصير مفهومًا لهم كما فهموه، وعلى هذا فكل من تُرجِمَ له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة دقيقة يفهمها لزمته الحجة . قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » .

وقال : « والذى نَفْسِي بِيَدِهِ لَايَسْمَعُ بى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّة يَهُودِىٌّ وَلَا نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ بالَّذى أُرْسِلْتُ به إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحابِ النَّار » . أخرجه مسلم .

وحيث كانت رسالة الإسلام عامة لأهل الأرض ، فيجب على المسلمين أن يكون فيهم من يعرفون اللغات المختلفة ، ليحسنوا تبليغ الدعوة المحمدية التى تركها النبى أمانة فى أعناقهم جميعاً ، وعلى من أسلم من غير العرب أن يتعلم اللغة العربية ليحسن فهم الإسلام من منابعه والعمل بشرائعه .

(فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ) : أى فبعد إرسال الله كل رسول بلسان قومه ، لتقوم به حجة الله ، يضل من ران على قلبه الغَواية والضلالة بما اجترح من آثام ، ويهدى من اتبع سبيل الرشاد ، وجانب أسلوب العناد ، فانشرح صدره للإسلام، واستقام على المنهج السديد بتوفيق الله رب العالمين .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : فلا يغالب فى مشيئته . (الْحَكِيمُ) : العظيم الحكمة فيما أوجبه على الناس من شريعته ،

٥ ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » .
أى ولقد أرسلنا موسى بلسان قومه بنى إسرئيل، وأيدناه بالآيات المعجزة الدالة على

صدقه وأمرناه بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده ليخرجوا من ظلمات ما كانوا عليه من الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) : أى وذكرهم بوقائع الله فى الأمم قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود أو بأيام الله التى أنعم فيه على بنى إسرائيل بمختلف النعم ، من إخراجهم من أسر فرعون وقهره ، وفلقه البحر لهم ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، ويجوز أن يراد منها المحن الشديدة والنعم الجميلة ، فكلتاهما من أيام الله وآياته البينات .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) : أى إن فى المذكور من أيام الله لدلائل على وحدانية الله وقدرته وفضله ورحمته. لكل صبار فى المحنة والبلية شكور فى المنحة والعطية ، قال قتاده : « نعم العبد ، إذا ابتلى صبر وإذا أعطى شكر » .

وقال ابن كثير : جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ لَا يَقْضِى اللهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ . إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) : أى يبغون لكم سوء العذاب من قولهم : سمت كذا أى ابتغيته وطلبته .

(وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ) : أى ويبقونهن أحياء فلا يقتلونهن .

(بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ) : أى ابتلاء بمعنى اختبار .

(تَأَذَّنَ) : أى آذن بمعنى أعلم كتوعده بمعنى أوعده ، غير أنه أبلغ منه .

التفسير

٦ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ) ... الآية .

يقول الله تعالى مخبرًا عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم وما أفاض عليهم من النعم ، إذْ أنجاهم من آل فرعون ، وما كانوا يكلفونهم به من التكاليف الشاقة مع القهر والإذلال والتعذيب السيء ، وكيف كانوا يذبحون أبناءهم الذكور ويستبقون إناثهم مستضعفات ذليلات ، وهذا من أسوأ ألوان البلايا والرزايا ، ولهذا قال سبحانه :

(وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) : أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم . لما فيه من التعذيب والمحن التى كان يصنعها بهم فرعون وقومه ، ثم لما فيه من نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والتنكيل .

فالابتلاء كما يكون بالضرر يكون بالمنفعة كما قال تعالى: « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . فبالخير يبلو عباده أيشكرون أم يكفرون ؟ وبالشر يبلوهم أيصبرون أم يجزعون؟ وهو فى كلتا الحالتين يُثِيبُ المحسن ويعاقب المسيء .

٧ - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ) : أى واذكروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده ووعيده إعلاماً مؤكدًا حيث قال :

(لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) : أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى ونعمتى . والتوفيق لطاعتى .

والآية نص على أن الشكر سبب المزيد من النعمة ، فإن من شكر الله على رزقه وسع عليه فى الرزق ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زَادَ ثوابَهُ فى طاعته ، ومن شكره

على ما أنعم به عليه من صحة زاده الله صحة وهكذا ... وقد أثر عن جعفر الصادق أنه قال: « إذَا سَمِعَتِ النعمةُ نِعْمَةَ الشُّكْر فتأَهب للمزيد ». وسئل بعض الصلحاء عن الشكر فقال: « أَلّا تتقوّى بنِعمِهِ على معَاصِيهِ ».

فَحَقيقة الشكر على هذا الرأى اعتراف المنعم عليه بالنعمة للمنعم، وألا يصرفها فى غير طاعته، و أنشد الهادى وهو يأكل:

أَنَالَكَ رِزْقَهُ لِتَقُومَ فيه بطاعته وتشكر بَعْضَ حقِّه
فلم تشكر لنعمته ولكن قويتَ على معاصيه بِرِزْقِه

فَغُصَّ باللقمة وخنقته العبرة.

(وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ): أى ولئن كفرتم نعمة الله بإنكار نسبتها إليه أو التقصير فى شكره عليها بالطاعة قولًا وعملا، فترقبوا أليم العذاب، إن عذابه لشديد، وذلك بسلب النعم فى الدنيا، وإنزال النقم فى الدنيا والآخرة، وفى الحديث: « إنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنب يُصِيبه ».

(وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾)

المفردات:

(حَمِيدٌ): مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد.

(بالْبَيِّنَاتِ) : أى بالآيات الواضحات .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فى أَفْوَاهِهِمْ) : أى ردوها لكى يعضوها فى أفواههم غيظاً .

(مُرِيبٍ) : الريبة هنا بمعنى اضطراب النفس وعدم اطمئنانها .

التفسير

٨ - (وَقَالَ مُوسَى إن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ) :

أى وقال موسى لقومه : إن تُنكرُوا نعمة الله التى أضفاها عليكم ولاتَشكروها ؛ إن تَفعَلوا ذلك يابنى إسرائيل ومعكم من فى الأرض جميعاً ، فما ألحقتم الضرر إلا بأنفسكم إذحرمتموها من مزيد النعم وعرضتموها لشديد العذاب ، فى الوقت الذى أنتم إلى الله أحوج ، وهو غنى عن شكركم وشكر غيركم ، فإنه لا تنفعه طاعتكم ، كما لا تضره معصيتكم ؛ وأنتم إن لم تحمدوه بألسنتكم ، فإن جوارحكم تلهج بحمده وأنتم لا تشعرون ، فإنه تعالى يقول : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذرعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يَاعبَادى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِّنْكُمْ مَازَاد ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعبَادى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفجر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ » .

فسبحانه وتعالى هو الغنى الحميد.

٩ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ . . .) الآية .

(١) الإسراء (٤٤)

أى ألم يأتكم يا أهل مكة خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ممن لايحصى عددهم ولا يعرف نسبهم إلا الله عز وجل .

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) :

أى جاءوهم بالحجج الواضحات والدلائل الباهرات ، وقد بين كل رسول لقومه طريق الهداية والأمن ودعاهم إليه ،ولكنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ) : أى جعل أولئك القوم أيديهم فى أفواههم ليعضوها غيظا مما جاء به الرسل ،مقرونا بتسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم ،أو ردوها إلى أفواههم مشيرين بها إلى ألسنتهم وما يصدرعنها من المقالة ، لينبهوا الرسل إلى تلقيها منهم وليقنطوهم . من التصديق والإيمان من جهتهم ، وذلك ماحكاه الله سبحانه وتعالى عنهم فى قولهم : «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ . . .» الآية .

وقيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لمَّا دعوهم إلى الله عز وجل ، قال أبو عبيدة والأخفش :هو ضرب مثل أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قَدْ رَدَّ يده فى فيه .

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) :

أى أننا لا نصدقكم فيما جئتم به ، وإنا لَفِى شك قوىٍّ موقع فى الريب وعدم الطمأنينة بسبب ما جئتم به من التعاليم والشرائع وماتدعوننا إليه من إيمان وتوحيد .

(* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ج
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ج
قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ج وَمَا كَانَ
لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ج وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ج
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ج وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾)

المفـردات :

(أَفِى اللهِ شَكٌّ) : الاستفهام للإنكار بمعنى النفى وفيه معنى التعجب .

(فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سبق .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : ببرهان بين له سلطان واضح على النفوس .

التفسير

١٠ ـ (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية .

حكى الله فى الآية السابقة قول الكافرين لرسلهم : « وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » . وجاءت هذه الآية تحكى رد المرسلين واستنكارهم لما زعموه والتعجب منه .

والمعنى : قالت الرسل لأممهم مستنكرين شكهم فى ربهم : أفى وجود الله شك وارتياب حتى تقولوا لنا : «وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».فى حين أنه فاطر السموات والأرض ومبدعهما ، أليس لكل صنعة صانع فلا بد للسموات والأرض من منشئ صانع له القدرة الكاملة ، والإرادة النافذة والعلم المحيط .

وقد جاء هذا الاستنكار والاحتجاج فى محاجة الأنبياء جميعا ، فكل رسول من الرسل جعل نصب عينيه توجيه أمته إلى التفكر والتدبر فى السموات والأرض ، والتبصر فى أسرارهما ، ليتعرفوا بذلك وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته ، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص .

ويجوز أن يكون المعنى : أفى ألوهية الله وتفرده بوجوب العبادة شك . . ؟ وهو الخالق لجميع الأرض والسموات المدبر لأمورها ، فلا يستحق العبادة أحد سواه .

وربما كان هذا المعنى أولى ، فإن أغلب الأمم كانت تقر بوجود الخالق المدبر ولكنها ، كانت تعبد معه غيره من الوسائط التى زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، ثم قالت لهم رسلهم : (يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : أى يدعوكم الله إلى الإيمان به وبوحدانيته وسائر صفاته وكمالاته ، على ألسنة رسله وشواهد آياته الكونية وكتبه المنزلة ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وضياء التوحيد ، لِيَغْفِرَ لَكُمْ بعض الذنوب ، ويمحو عنكم بعض ما اقترفتموه من الآثام ، وهى التى تتعلق بحقوق الله وحده . وفى ذلك يقول تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ » .

أما حقوق العباد فإن الله سبحانه وتعالى لا يعفو عنها إلا برضا أصحابها وعفوهم عنها ، ولهذا عبر فى الآية بمِنْ فى قوله : «يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ».فإنها أفادت التبعيض وهذا البعض الذى يغفر هو ما يتعلق بحق الله تعالى ، فإن حق الله تعالى مبنى على المسامحة بمقتضى هذا الوعد الكريم . أما حقوق العباد فإنها مبنية على المطالبة والمؤاخذة ، وكما يدعوكم الله إلى الإيمان ليغفر لكم من ذنوبكم ، يدعوكم أيضًا إلى الإيمان لفائدة أخرى ، وهى أن لا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل الكافرين قبلكم ، بل يبقيكم تتمتعون فى دنياكم حتى الأجل الذى

سَمَّاهُ وقدره لكل فرد من البشر، وهذا هو المعنى الذى عناه ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : يمتعكم باللذات والطيبات إلى الموت، ويؤيد هذا قوله تعالى : « أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ »(١) ويحكى الله سبحانه وتعالى رد الأمم الكافرة على دعوة رسلهم إياهم إلى الإيمان فيقول :

(قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى قالوا عُتُوًّا وعنادا ومكابرة : ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الصورة والهيئة، فلا فضل لكم علينا يؤهلكم للرسالة التى تدعونها، وتريدون بها أن تمنعونا عن آلهتنا التى كان يعبدها آباؤنا فإن كنتم رسلا من عند الله كما ادعيتم :

(فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) : أى فأتونا ببرهان ذى سلطان بَيِّن واضح، يدل دلالة قاطعة على استحقاقكم لمرتبة الرسالة وصحة ما تدعوننا إليه، حتى نترك عبادة آلهتنا التى وجدنا عليها آباءنا .

لقد جاءهم الرسل بالآيات والمعجزات التى تخر لها صم الجبال، ولكن القوم زعموا أن ما جاءتهم به الرسل من معجزات ليس من جنس السلطان المبين الذى يقترحونه، وهكذا كانوا يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم. ثم يحكى الله سبحانه وتعالى جواب الرسل لأقوامهم فيقول :

١١ – (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ...) الآية.
أى قالت الرسل لأممهم : ما نحن إلا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن الله ينعم على من يشاء من عباده ، فيصطفيهم لرسالته ، ويختصهم بها بمحض فضله وامتنانه ، لا بحسب ولا نسب ولا باجتهاد منهم فى العبادة !

---

(١) من الآية ٣ سورة هود .

والبشرية غير مانعة لمشيئته جل وعلا أن يتفضل بهذا الاختصاص على من يشاء من عباده من أهل الفضل والكمال، «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1]» . ولم يرسل الله إلى البشر ملكاً، لأنَّهُ لاطَاقَةَ للناس بالتلقى عن الملائكة كما قال تعالى: «وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ» .

ثم قالت الرسل جوابا لقول أممهم: «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ» :

(وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ): أى وما صح لنا وما استقام أن نأتيكم ببرهان كما طلبتم غير ما أجراه الله على أيدينا من المعجزات إلا بإذن الله وتيسيره، فإن لم يأذن فلا سبيل إليه، ولا قدرة لنا عليه، مع ما خصنا الله به من النبوة وشرّفنا به من الرسالة .

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ): أى قال كل رسول لأمته بعد ما تقدم: وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون وليفوضوا جميع أمورهم إليه، وليصبروا على معاندة الكافرين ومعاداتهم، ثم أيدوا وجوب توكلهم على الله بقولهم :

١٢ــ (وَمَالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا . . .) الآية .

وأى عذر لنا فى ترك التوكل على الله وحده والاعتماد عليه فى رفع أذاكم وسلوك سبيله، وقد أرشدنا إلى سبيله المستقيم، ومنهاجه الذى شرعه له وأوجب عليه سلوكه .

(وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا): بالعناد والتكذيب واقتراح الآيات، وما إلى ذلك من السفه واللّجاج؛ حتى يأتينا نصر الله .

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ): أى وعلى الله فليعتمد المؤمنون المتوكلون دائما فإنه هو الذى ينصرهم، وبيده وحده هزيمة أعدائهم . «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[2]» .

(١) الأنعام: من الآية ١٢٤
(٢) سورة الطلاق: من الآية ٣

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى
وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(لَتَعُودُنَّ) :لَتَصِيرُنَّ.(مَقَامِى) : أى الموقف المَمْلُوك لله ، الذى يقف به العباد بين يَدَيه للحساب ، أو قيامه على عبده ومراقبته إياه.(وَعِيدِ) : وعدى بعذاب الكفار والعصاة يوم القيامة .

التفسير

١٣ ــ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنَا ...) الآية.
استمر الكفار فى جدالهم للرسل بالباطل ، وضاقت صدورهم بالحق بعد ماتبين ، وكبر عليهم أن يرجعوا إليه ، فسلكوا مسلك العنْف والقوة وقالوا تهديدًا للرسل ووعيدا لهم :

(لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) :

لم يكتفوا بعصيانهم للرسل ومعاندتهم للحق بعد ما رأوا الآيات البينات حتى اجترؤا على مقالتهم الشنعاء التى يعجز عنها الوصف ، وأقسموا : ليكونَنَّ أحد الأمرين لامحالة : إما أن نخرجكم من أرضنا ، وإما أن تعودوا إلى ديننا وتتحولوا إلى مِلتنا .

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) :

أى فأوحى إلى الرسل ربهم ومالك أمرهم تثبيتا للمؤمنين ووعيدا للكافرين قائلاً :

(لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) : أى لنقتلنَّ الذين ظلموا أنفسهم بشركهم ،وظلموا الرسل والمؤمنين بتكذيبهم وإيذائهم - لنهلكنهم - ان استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم أكمل الله وعيده للكافرين ووعده للمؤمنين بصيغة التوكيد فقال سبحانه :

١٤ - (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ .... [1]) الآية.

أى ولنسكننكم أيها المؤمنون أرض هؤلاء الكافرين بعد إهلاكهم ،عقوبة لهم فى الدنيا على قولهم لرسلهم : «لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ».وتلك سنة الله فى رسله وعباده المؤمنين ، ألاترى إلى قوله تعالى : « وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ». وإلى قوله جل سلطانه : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلا ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً [2] » .

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ) : أفادت هذه الجملة أنه تعالى جرت سنته مع رسله ومن آمن بهم أن ينصرهم على من كفربهم ، ويسكنهم الأرض من بعد إهلاكهم .

والمعنى : ذلك الذى مَرَّ بيانه من إهلاك الظالمين ،وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم أمرثابت لكل من خاف موقفى الذى يقف به العباد بين يدىَّ للحساب يوم القيامة، أو خاف قيامى عليه بحفظ أعماله ومراقبتى إياه ، فإنى قائم على كل نفس بماكسبت ، وذلك أيضا لمن خاف وعيدى بالعذاب للكفرة والعصاة .

---

(١) الأعراف : من الآية ١٣٧

(٢) الإسراء : الآيتين ٧٦ - ٧٧

(وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ
وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَٱسْتَفْتَحُوا) : وطلبوا الفتح ، والمراد به هنا النصر . (وَخَابَ) : وخسر وهلك .

(كُلُّ جَبَّارٍ) : الجبار فى اللغة ؛ من يقهر الناس على ما يريده ، والمراد به هنا المتكبر عن عبادة الله تعالى وطاعته المتعالى على رسله . (عَنِيدٍ) : شديد العناد والمكابرة .

(مِنْ وَرَائِهِ) : من خلفه ـ أو من أمامه . وأصل معنى وراء : ماتوارى عنك قدامك أو خلفك .

(مَاءٍ صَدِيدٍ) : هومايسيل من أجساد أهل النار . وأصل الصديد : الماءُ الرقيق الذى يخرج من الجرح .

(يَتَجَرَّعُهُ) : أى يتكلف بلعه مرة بعد أخرى من الجَرْع وهو البلع .

(وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ) : ولايقارب أن يبتلعه بسهولة .

التفسير

يخبر الله تبارك وتعالى عما انتهى إليه أمر الرسل مع مكذبيهم ، بعد أن صبروا عليهم وصابروهم حتى يئسوا كل اليأس من إيمانهم فيقول جل من قائل :

١٥ - (واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ):

أى لجأ الرسل إلى ربهم وسألوه الفتح والنصر على عدوهم ، فاستجاب الله لرسله ونصرهم فظفروا وأفلحوا ، وخسر أعداؤهم وهلكوا ، جزاء تكبرهم وعنادهم .

والتعبير بقوله تعالى : «كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» بدلا من التعبير بقوله : وخابوا لِذَمِّهِمْ وتسجيل التجبر والعناد عليهم ،وواضح على هذا المعنى أن الضمير فى قوله تعالى : «وَاسْتَفْتَحُوا» للرسل وحدهم كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقيل إن الضمير للمكذبين وحدَهم ، وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم للرسل ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ، ظنوا أنهم على الحق ، وأن ما جاءت به الرسل باطل ، فاستفتحوا على الرسل واستنصروا عليهم ، أو استفتحوا على أنفسهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء ، كقول قوم نوح : «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»[1] وقول قوم شعيب : «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»[2]. وقول المشركين من قريش : «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»[3].

وقيل : إن الضمير للرسل عليهم السلام ولمكذبيهم ، أى أنهم جميعا سألوا الله تعالى أن ينصر المحق ويهلك المبطل ، وقد نصر الله رسله والمؤمنين «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[4].

١٦ - (مِن وَّرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ) :

بينت الآية السابقة مالقى مكذبو الرسل ومعاندوهم من الهزيمة والهلاك فى هذه الدار ، وتبين هذه الآية وما بعدها مايلقاه كل منهم من أنواع العذاب وألوانه فى دار القرار .

والمعنى : مِنْ خَلْفِ كُلِّ جبارٍ معاند للرسل جهنمُ تستقبله عقب انتهاء حياته فى الدنيا .

---

(١) هود : ٣٢ (٢) الشعراء : ١٨٧
(٣) الأنفال : ٣٢ (٤) الأنعام : الآية ٤٥

وقال ابن كثير: «وراء» هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: «وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً»[1]. وكان ابن عباس يفسرها بذلك؛ وسواء فُسرت وراءُ بهذا أو بذاك فالمقصود أنهم يلقون عقابهم في جهنم يوم القيامة فهي، أمامهم يستقبلونها وهي خلفهم بعد انقضاء حياتهم. والمعنى: من ورائه جهنم يلقاها ويسقى فيها من ماءٍ يشبه الصديد الذي مر بيانه في المفردات. ويجوز أن يكون من الصَّدِّ بمعنى الإعراض، أن يسقى من ماء كريه يعرض عنه، ويصف الله سبحانه وتعالى هذا الماء الذي لايستساغ فيقول جل شأنه:

١٧ – (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . .) الآية.

أي يتكلف الجبار العنيد جرعه وبلعه مرة بعد أُخرى فلا يقرب من استساغته، ولا يسهل عليه بلعه لحرارته ومرارته. وقيل إن المعنى: لايقارب أن يدخله في جوفه قبل أن يشربه فيُسقاه على الرغم منه قهراً وقسراً، أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم – وصححه – وغيرهم عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآيه: (يُقَرَّب إليه فيتكرّهه فإذا أُدنى منه شَوى وجهه ووقعت فروة رأسه. فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دُبُرِه) يقول الله تعالى: «وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»[2]. وتستمر الآية في وصف عذاب الجبار العنيد وذلك في قوله تعالى:

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ): أي ويأتيه أسباب الموت من الشَّدَائِدِ وأنواع العذاب من كل موضع، والمراد أنه يحيط به من جميع الجهات، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما. وقيل من كل مكان في جسده حتى أطراف شعره وإبهام رجله «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» فيستريح بالموت. بل إنه لايخفف عنه العذاب في وقتٍ مَّا، كي ينفس عن نفسه بعض الكرب كما قال تعالى: «لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ»[3]. وكما قال عز وجل: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»[4]. فهم مخلدون في جهنم يستقبلون في كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان

(١) الكهف من الآية ٧٩

(٢) سورة محمد من الآية: ١٥، وقال تعالى في سورة الكهف: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه» من الآية: ٣١

(٣) سورة فاطر من الآية: ٣٦

(٤) سورة النساء من الآية: ٣٦

قبله . ولهذا ختمت الآية بقوله سبحانه وتعالى :

(وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) : والضمير فى (ورائه) يعود إلى كل جبار أو إلى العذاب المفهوم من الكلام السابق.والمعنى : وأمام كل جبار أو : وأمام كل عذاب ذاقه الجبار — عذابٌ آخر شديد الغلظة ، وأهوال العذاب وأنواعه وأشكاله لايحصيها إلا الله تعالى : «جَزَاءً وِفَاقًا».[1] «وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».[2] واعلم أن عذاب الكفر يتفاوت فى الشدة وأن النار دَرَكات كما أن الجنة درجات ،وأنه لايستوى كافر عنيد متمرد يسعى فى الأرض فسادا ، وكافر مغلوب على أمره ،وفى تفاوت عذاب الكفار يقول الله تعالى : «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُم نَصِيرًا».[3] ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما إن «أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ وُضِعَ فى أخمص قدميه جمْرةٌ يغلى منها دماغه».[4]

(مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) . المثل فى أصل اللغة : بمعنى الشبيه والنظير ، كالمثل والمثيل . ويطلق على الحال والصفة التى لها شأن وفيها غرابة ، كما فى هذه الآية وأمثالها مما تقدم مرارا

(١) سورة النبأ : الآية : ٢٦

(٢) سورة فصلت من الآية : ٤٦

(٣) سورة النساء من الآية : ١٤٥

(٤) الأخمص من باطن القدم ما تجافى عن الأرض وهو بوزن (أحمد) والدماغ بوزن كتاب هو مخ الرأس .

ويأتى كثيرا . (فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ): العصف : اشتداد الريح ،وُصف به زمان هبوبها تقوية لشدتها وتوكيدا ، كما وصف النهار بالصيام والليل بالقيام فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم؛ لكثيرِ الصيامِ والقيامِ .

التفسير

١٨ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ...) الآية .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ، ما يلقاه الكفار من العذاب الشديد يوم القيامة - بيّن فى هذه الآية أن أعمال الخير التى عملوها فى الدنيا ، تصير كلها فى الآخرة ضائعةً باطلة ، لاينتفعون بشىء منها ، وكذلك ماقدموه من القرابين لآلهتهم زاعمين أنها تقربهم إلى الله تعالى .

والمعنى : أن أعمال الكافرين التى يتقربون بها إلى آلهتهم ، أو يفعلونها رغبةً فى البر - صِفتُها فى حبوطها وذهابها دون أن ينتفع بها أصحابها يوم القيامة ، وهم فى أشد الحاجة إلى ثوابها - صِفتُها - كصفة رماد بعثرته الريح الشديدة وفرّقته فلم تدعْ له أثرا ، لأَنها مَبْنِيَّةٌ على أساس باطل وهو الكفر ، وما بنى على باطل فهو مردود ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَقَدِمْنَا إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً» (١) .

ثم أكد سبحانه حبوط هذه الأَعمال وذهابَها ، وعجزَ الكفرة عن الانتفاع بها فقال :

(لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) : أى لايقدر أُولئك الكافرون على نيل ثواب لما عملوه ينفعهم يومئذ ، فقد أضاعه كفرهم ، كما أضاعت الريح الشديدة التراب وبعثرته ولم تُبْقِ منه شيئا .

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ) :

أى ذلك الكفر الذى جعل أعمالهم الصالحة ضائعة لاينتفعون بها ، هو الضلال البعيد عن الطريق الموصل إلى الخير ، وإلى الغاية الحميدة .

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٣

ومما وردَ فى السنة دليلا على أن عمل الكافر لا ينفعهيوم القيامة ولو كان صالحا ، ماروواه مسلم فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضىالله عنها قالت : يارسول الله : ابنُ جُدْعَان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وكان عبد الله بن جدعانَ من وجوه بنى تيْم ورؤساء قريش ، وكان قريبا لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وله تاريخ حافل بالجود والمكارم ، فأهَمَّها شأْنُه ، فسألت عنه من لاينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ،فأجابها بأن شيئا من هذه الصالحات التى عملها لاتنفعه يوم القيامة ، لأنه لم يصدق بالبعث فمات كافرا ، والإيمانُ هو الشرط الأساسى فى قبول الصالحات وحُسْنِ جزائها فى الآخرة بقوله تعالى فى شأْن الكافرين : « وقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا » . أما المؤمنون الصالحون ،فإنهم يُثابون أحسن الثواب ولايظلمون ، قال تعالى: « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا »(١) وقال سبحانه : « فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُو مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » . (٢)

وإنما حُرم الكفار يوم القيامة ثواب ماعملوه فى الدنيا منَ الصَّالحاتِ والمكارم ؛ لأنهم بنوها على غير أساس سليم من معرفة الحق تبارك وتعالى ،والإيمان به والإخلاص لوجهه ، فجعلها الله هباءً منثورا ، وحسبهم من عدل الله الذى لايظلم أحدا مثقال ذرة ، أن يكافئهم على هذه الصالحات فى الدنيا ، من سعة فى الرزق ، ورغد فى العيش ، ومااليهما من الطيبات المعجلة لهم فى هذه الحياة. وقد بيَّن ذلك ماروواه مسلم فىصحيحه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لايظلم مؤمنا حسنة :يُعطى بهافى الدنيا ، ويُجزَى بها فى الآخرة ،وأما الكافر فيُطعم بحسنات ماعمل بها

(١) سورة طه : الآية ١١٢
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٤

لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها. وفى هذا الحديث الصحيح الصريح فصل الخطاب .

ويرى بعض العلمـــاء أنه يجوز أن يخفف الله تعالى عـــذاب بعض الكفـــار فى الآخرة بما له من حسنات دنيوية ، أخذا من قوله عزّ سلطانه : « النَّار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » (١) . فهذه الآية يفيد ظاهرها أن عذاب الكفار فيه شديد وفيه أشد ، وذلك يقتضى أن بعضهم أخف عذابا من بعض ، ويرجع هذا إلى استفادتهم من أعمال الخير التى عملوها . ويؤيد ذلك قوله تعالى : «ونَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » . (٢) وقوله تعالى : «فَمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٣) . كما استدلوا بما رواه البخارى ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما أَغْنَيْتَ عن عمك ، (٤) فإنه كان يَحُوطك ويَغْضَبُ لك؟ قال : (هو فى ضَحضاح من نار ، ولولا أنَا لكان فى الدرْك الأسفل من النار) (٥) . وكما أن الجنة درجات ، فالنار دَرَكات .

وبالجملة فقد وقع الإجماع على خلود الكفار فى النار ، على اختلاف دركاتهم ، كما قال عز وجل : « وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (٦) .

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦.

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧

(٣) سورة الزلزلة : الآيتين ٧ ، ٨ وفى تفسيرهما — وفى الآلوسى — مزيد بيان لمن شاء.

(٤) يريد به أبا طالب .

(٥) يحوطك : يصونك من المشركين بالدفاع عنك : والضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين استعير هنا للنار القليلة جدا بالنسبة إلى غيره من أصحاب النار ، والدرك بسكون الراء وفتحها قراءتان سبعيتان : والدرك فى اللغة أقصى قاع الشىء ، والمراد به هنا مقر جهنم والعياذ بالله تعالى .

(٦) سورة البقرة : من الآية : ١٦٧ .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟
لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَلَمْ تَرَ) : أى ألم تعلم . والاستفهام للتقرير ، أى لقد علمت أيها المخاطب ماشهد بما تعلم . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت وهو الحكمة المنزهة عن العبث .

(يُذْهِبْكُمْ) : يُفْنكُم حتى لايبقى لكم أثر . (وَمَا ذَلِك عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) : أى وليس ذلك بممتنع ، فلا يصعب تحقيقه على الله تعالى .

(وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا) : أى ظهروا لله جميعا . والمراد أنهم خرجوا من قبورهم لحساب الله تعالى وحكمه .

(مُغْنُونَ عنَّا) : أى دافعون عنا ، يقال أغنى عنه : إذا دفع عنه الضرّ ، وأغناه : إذا وَصَّل له النفع .

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : أى مستو علينا الجزعُ والصبرُ ، والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

(مَحِيصٍ) : مَعْدِلٌ ومهرب ، يقال : حاص عنه يحيص : إذا عدل عنه وحاد ، إلى جهة الفِرار .

التفسير

١٩ ـ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

بعدأن قص الله تبارك وتعالى مالقى رسله فى سبيل الدعوة إليه من العناد والإيذاء ، والتكذيب والاستهزاء ـ توعد المكذبين لهم بأنه قادر على أن يهلكهم ويستبدل بهم خيرا منهم فقال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ » .

الظاهر أن الخطاب فى الآية الكريمة لكل أحد من الكفرة ، لقوله: « يُذْهِبْكُمْ » . وهذا أنسب بالوعيد والتهديد . والاستفهام هنا للتقرير ؛ ولذا يستعمل فى الأمر الواضح الذى يكفى فيه مجرد تنبيه المخاطب ، ليعترف ويشهد به .

. والمعنى : ألم تعلم أن الله جلت قدرته خلق السموات والأرض بالحكمة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى يَحق أن يُخلَق عليه ، ليُستدل بخلقهما ـ بهذا النظام الدقيق والنمط البديع ـ على قدرته ووحدانيته وسائر كمالاته .

(إن يَشَأْ يُذهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى إن يرد الله سبحانه وتعالى إهلاككُم أيها المكذبون ، يُفْنِكُم حتى لايبقى منكم أحد ، ويأْت بخلق جديد يكون أطوع لله منكم . وأسبق إلى الحق ، وأسرع إلى الهدى أرشد سبحانه بخلق السموات والأرض ـ وَهما أكبر من خلق الناس ـ إلى طريق الاستدلال على وحدانيته وقدرته على إهلاكهم وخلق سواهم ، فإن من قدر على خلق هاتيك الأجرام العظيمة التى لايحيط بعظمتها إلّا مبدعها ، فهو على تبديلهم بخلق آخر أقدر ، ولهذا قال :

٢٠ ـ (وَمَاذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) :

أى وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ، بممتنع على الله تعالى ولامتعسر ، فإنه قادر بذاته على جميع الممكنات ، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومَن هذا شأْنه فهو حقيق بأن يُعبَد وحده ، ويُرجى ثوابه ، ويُخاف عقابه . والضمير فى قوله تعالى :

٢١ - (وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعاً) :

إما لمكذبى الرسل . لأن الكلام لهم كما تقدم بيانه ، وبهذا قال كثير من المفسرين وفى مقدمتهم الإمام الطبرى . وإما للمصدقين والمكذبين جميعا ، فإن الحشر يوم القيامة للعباد جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، وبهذ قال أكثر المفسرين ، ومنهم ابن كثير إذْ قال فى الآية : (وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعاً) : أى برزت الخلائق كلها ؛ برُّها وفاجرها لله الواحد القهار . أى اجتمعوا له فى بَراز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستر أحدًا ..... ومعنى بروزهم لله : ظهورهم من قبورهم لحساب الله تعالى وجزائه .

ولما كان هذا البروز أمرًا متحققاً كائناً لامحالة ، عبر عنه بصيغة الماضى ، كأنه وقع فعلا ودخل فى دائرة الوجود ، وإن كان لا يزال مستقبلا واقعاً بعدالموت ؛ أو لأنه لامضى ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه ؛ ومن هذا قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ [(١)] » . وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَستَعْجِلُوهُ [(٢)] » .

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ) : جمع ضعيف . والمراد بهم ضعاف الرأى ، وهم الأتباع ، قالوا ! (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : أى لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغوَوْهم :

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) : فى تكذيب الرسل عليهم السلام ، والإعراض عن نصائحهم ، وكلما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ، والاستفهام فى قولهم :

(فَهَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ) : للتوبيخ والتقريع ، أى فهل أنتم اليوم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننَا وتمنوننا فى الدنيا ؟ !

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٤٤

(٢) أول سورة النحل .

(قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ) :

أى قال المستكبرون جواباً عن تقريع الضعفاء وتوبيخهم واعتذاراً عما فعلوا بهم : لوهدانا الله إلى الإيمان ووفقنا له لهديناكم ، ولكن لم يوفقنا ، فضَلَلنا وأضللناكم ، أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، أو لو هدانا الله إلى طريق النجاة من العذاب لهديناكم ودفعنا عنكم ، ولكن سُدَّ دُوننا طريق الخلاص ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين . .

والمقصود من قول المستكبرين للمستضعفين : (سَوَاءٌ عَلَيْنا أجزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : مُبالغتهم فى النهى عن التوبيخ ، بإعلامهم أنهم شركاءُ لهم فيما ابتُلُوا به وتسلية لهم ؛ أى سيان علينا الجزعُ مما نحن فيه من العذاب والصبرُ عليه .

والهمزة فى قوله « أجزعنا » للتسوية بين جزعهم وصبرهم ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهمُ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لَا يُؤْمِنُونَ »[1].

(مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) : أى ليس لنا على الحالين مَهْرَبٌ ولا خلاص من عذاب الله . وهذه الجملة لتقرير ما قالوه وتأكيده ، أى أنهم لا مناص لهم البته مما هم فيه .

ويجوز أن يكون هذا من قول المستكبرين والمستضعفين جميعاً ، يسلِّى بعضهم بعضاً ، ويتأسى بعضهم ببعض . ولكن الأمر كما قال تعالى : « وَلَن يَّنفَعَكُمُ الْيَوْم إذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »[2]. والظاهر أن هذه المراجعة تكون فى النار بعد دخولهم فيها ، كما قال تعالى : « وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَم بَيْنَ الْعِبَادِ »[3] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٦

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٩

(٣) سورة غافر : الآيتين ٤٧ ، ٤٨ .

قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان أنها فى موضع العرض وقت البروز بين يدى الله تعالى . ا هـ . وأيا ماكان الأمر فالمواقف فى يوم القيامة متعددة ، ومن الجائز أن تتعدد المراجعة والخصومة تبعاً لتعددها.

(وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾)

التفسير

٢٢ ـ (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ..) الآية : لما ذكر الله تعالى المحاورة التى تكون بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس والجن ، أردفها بالمحاورة التى تكون بين الشيطان وأتباعه . وهى التى تضمنتها هذه الآية الكريمة وما بعدها .

والمعنى : وقال الشيطان لأتباعه بعد أن قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة وأسكن الكافرين النار ـ قال الشيطان لأتباعه ـ ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم (إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) : على ألسنة رسله أن يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شراً فشر ، ووعد الله حق ، وخبره صدق ، وقد أنجز الله ما وعد .

(وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) :

أى ووعدتكم ألَّا بعث ولا جزاء ، ولو صح أنكم تبعثون فلأصنامكم شفاعة عند ربكم وقد أخلفتكم فيما وعدتكم ، فحق عليكم وعيد ربكم ، وقد كان عليكم ألا تنخدعوا بما زخرفته لكم من القول ، وأن تعصونى فيما أمرتكم به .

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) :أى وما كان لى عليكم من جبروت وسلطان يقهركم على اتباعى ، فلا قوة لى ولا حجة معى ، حتى تستجيبوا إلى مادعوتكم إليه ، لكنكم أسرعتم إلى إجابتى تلبية لشهواتكم وإشباع نزواتكم .

(فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ) : أى فلا تلومونى اليوم على ما انتهى أمركم إليه من عذاب النار ، ولوموا أنفسكم ، فإن لكم النصيب الأوفى من اختيار السبيل الموصل إليه .

ثم بين لهم الشيطان حقيقة أمره وأمرهم وهوانهم على الله تبارك وتعالى وذلك ما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

(مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) :أى لست اليوم بمغيثكم مما أنتم فيه من عذاب الإضلال ووباله ، ولستم بمغيثىَّ مما أنا فيه من عذاب الإضلال ونكاله . ثم زادهم غما على غمهم بإعلان تبرئه من إشراكهم إيَّاه ، فقال فى استنكار وإصرار :

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ) : أى إنى برئت من إشراككم إياى مع الله فى الدنيا ، حيث أطعتمونى فى الشركما يطاع الله فى الخير كأنى معبود معه . ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ »[1] . ويجوز أن يكون هذا النص حكاية لما كان مِنْ إبليس فى الدنيا فى حق الله تعالى ، يقوله على سبيل الندم وأن مثله لا يستطيع أن يغيثهم مع ذنبه .

والمعنى حينئذ : إنى حين أبيت السجود لأبيكم آدم كفرت بالله الذى جعلتمونى له شريكاً ، فكيف أستطيع أن أطلب من الله أن يغيثكم مما أنتم فيه وذنبى عظيم بالنسبة إليه سبحانه ، ثم ختم الشيطان كلامه بقوله فيما حكاه الله عنه : (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

(١) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وبهذا سجل الشيطان اعترافه على نفسه وعلى أتباعه بأنهم ظالمون فيما أحدثوه من الضلال والإضلال وأنهم مستحقون بسبب ذلك العذابَ الأليمَ .

ويجوز أن يكون هذا القول حكاية لرد الله سبحانه وتعالى على الشيطان وأتباعه جميعاً إقناطاً لهم من رحمة الله – تابعين كانوا أو متبوعين – أى إن الظالمين لهم منّا عذاب أليم فلا ينفعهم فى ذلك اليوم الندم ، ولا إلقاءُ بعضهم التبعة على بعض .

وقد دلت الآية على فساد التقليد فى الاعتقاد ، لأن أتباع الشيطان لما صدقوه بمجرد دعواه لم يعذرهم الله سبحانه بل عاقبهم كما عاقبه ، فعلى كل قادر على النظر والاستدلال أن ينهج فى عقيدته منهج الاحتجاج بالآيات والاستدلال بالبراهين القطعية .

ولما ذكر سبحانه وتعالى جزاء الأشقياء بما صاروا إليه من الخزى والعذاب الأليم ، أتبع ذلك جزاءَ السعداء بما أعد لهم من النعيم المقيم فقال جل ثناؤه :

٢٣ – (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ....) الآية . أى أدخل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات – أدخلوهم – جنات أُعدَّت لهم ، تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار . (خَالِدِينَ فِيهَا) : أى ماكثين فيها أبدًا لايخرجون منها ولا يُخْرجهم منها أحد ، فنعيمهم دائم وسعادتهم لا نهاية لها ، وكل ذلك (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : وأمره وفضله لابعملهم فحسب ، ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يُدْخل أحدًا عملُهُ الجنَّةَ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة » . الحديث أخرجه الصحاح واللفظ للبخارى . (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) : أى يحيى بعضهم بعضاً بالسلام ، والسلام هو تحية الله وملائكته اختارها الله لعباده المؤمنين فى الدنيا وفى الجنة دار السَّلام .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ
رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ تَرَ) : الخطاب هنا لكل ذى عقل يحسن فهم الخطاب ، والاستفهام هنا للتقرير بالعلم ، والمعنى : ألم تعلم.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً) : المثل الصفة العجيبة ، وضرب المثل تبيينه ووضعه فى المكان اللائق به .

(كَلِمَةً طَيِّبَةً) : المراد بها هنا كلمة التوحيد .-

(تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ) : تعطى ثمرها فى كل وقت .

التفسير

٢٤- (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ...) الآية .

لما بين الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء فيما تقدم ، ضرب لكل من الفريقين مثلا يتميز به عن صاحبه ، فقال عز مِنْ قائل يخاطب كل من يصلح للخطاب من أصحاب العقول الراجحة :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) :

أى ألم تعلم أيها العاقل الفطن كيف بين الله للناس مثلا يعرفون به منزلة كلمة التوحيد فى الإسلام ، حيث شبهها بشجرة طيبة أصلها ضارب بعروقه فى الأرض ، وفرعها - أى أعلاها - متجه إلى السماء ، تعطى ثمرها فى كل و قت وقَّته الله لإثمارها بإذن خالقها ومربيها .

فالمراد بالكلمة الطيبة هى شهادة ألا إله إلا الله التى هى الأساس الأول للإسلام وهذا ما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عباس .

وعن الأَصَمِّ أنها القرآن الكريم ، فإنه أصل يتفرع عليه كل خير فى الدنيا والآخرة ، وقد شبهها الله تبارك وتعالى بالشجرة الطيبة ، والمراد بها عند جمهور المفسرين النخلة ، وبه أخذ ابن عباس وابن مسعود ، ويؤيده مارواه الشيخان وغيرهما عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فَأُتِىَ بجُمَّار فأكل منه وقال : إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها ، وإنها مَثَلُ المسلم ، فحدثونى ماهى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى ،

قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة فأردت أن أقول هى النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم - وكنت عاشر عشرة أَنَا أَحْدَثُهمْ ورأيت أبابكر وعمر لايتكلمان ، فكرهت أن أتكلم واستحييت : ثُم قالوا : حدثنا ماهى يارسول الله؟ قال : هى النخلة ، قال عبدالله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى فقال : لأن تكون قُلْتَها أَحبُّ إلَّى من كذا كذا . وعند ابن حبان فى صحيحه : أحسبه قال : من حُمْرِ النَّعم . والإبل الحمراءُ كانت أحب أموال العرب إليهم وأنْفَسها .

وقيل : هى كل شجرة مثمرة طيبة الثمار والمنظر والرائحة . وقيل غير ذلك . وأرجح هذه الأقوال أولها وهو كونها النخلة ، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة فى الأرض ، وأن مايتفرع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء ، ويصعد إلى الله تعالى ، كما قال جل شأنه : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[1] . وأن مايترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها ، والانتفاع بها فى كل وقت ، فإن ثمر النخيل يؤكل أبدا : ليلا ونهارا صيفا وشتاء ، فيؤكل منها الجمار والبلح ، والبسر والرطب والتمر ، وكل نتاجها خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعا تُسْتَعْمل فى مصالح الناس ومرافقهم ، ولن ترى شيئا منها مهملا أبدا ، وكم من الناس يقيمون فى بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون على التمر كما

(١) سورة فاطر : من الآية ١٠

تعيش إبلهم على النوى ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : «إن كنا آل محمد لنمكث شهرين مانُوقد ناراً ، إنْ هما إلا الأَسْودانِ : التمر والماء» .

وكذلك المؤمن القوى والمسلم الحق ، كله خير وبركة أينما حل وارتحل : لنفسه وعشيرته وأُمته ، فى حياته وبعد مماته ، ومن هنا فسرت الكلمة الطيبة بالمؤمن كما قال بعض السلف، فما أروع هذا التشبيه المقتبس من مشكاة النور الإلهى .

وفى ختام الآية الكريمة يقول الله تعالى : (وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ): تنبيها على شأْن الأَمثال وعظيم فائدتها ، فى تجلية الحقائق وتنويرها ، عونا على التبصير والتذكير ، ودوام النظر والتدبر فى كتاب الله الحكيم .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(اجْتُثَّتْ) : قطعت واستؤصلت. (مِن قَرَارٍ) : من ثبات فى الأَرض .
(بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) : بكلمة التوحيد .

التفسير

٢٦ - (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ . . .) الآية .

الكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر وما يدعو إليها ويتصل بها ، ضد الكلمة الطيبة ، يجتمعان فى قلب واحد أبدًا ، والشجرة الخبيثة هى الحنظلة ،فقد روى أبو يعلى فى مسنده

عن أنس رضى الله عنه قال :(أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقِنَاع [طبق] عليه رطب فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإِذْنِ رَبِّهَا » قال : هى النخلة « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا من قَرَارٍ » : قال هى الحنظلة) .

وقيل : هى كل شجرة لايطيب لها ثمر ؛ ضد الشجرة الطيبة وهى التى يطيب ثمرها .

قال الآلوسى تبعا لأبى السعود : ولعل تغيير الأسلوب ـ يعنى فى قوله : « وَمَثَلُ كلمة خبيثة » بدلا من قوله : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا . . . » ـ للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان : وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد . اهـ .

(اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ) :

أى اقتلعت من أصلها واستؤصلت جثتها ؛ إذ حقيقة الاجتثاث أخذ الجُثَّة كلها ، وهى شخص الشىء كما قال الراغب .

وهذا فى مقابلة قوله : « أصلها ثابت » وقال : « من فوق الأرض » لأن عروقها قريبة من الفوق فكأنها فوقه .

(مَالَهَا مِن قَرَارٍ) :

أى ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات فى الأرض ولا استقرار ، إذ ليس لها أصل ثابت ولا فرع صاعد ، وكذلك الكافر لا خير فيه : لا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ، إذ ليس لهما عنده أساس يبنيان عليه ، فهذا وَجْهُ تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة .

٢٧ ـ (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ...) الآية .

أى أنه تعالى يثبِّت الذين صدقوا برسالة الأنبياء والمرسلين ـ يثبتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثابت بتوحيد الله وطمأنينتهم به ، فلم تهزه الشكوك ولم يزلزله الإيذاء أو التشكيك ؛ فيَظلُّون على ما هم عليه من اليقين الثابت فى الحياة الدنيا ، لاتزحزحهم عنه الشدائد والفتن ، وإن كانت كموج البحر أو كقطع الليل المظلم ! !

وإليك أيها القارئ مثلين اثنين مما صنعه الكفرة الفجرة ، فى مؤمنى الأمم السابقة ، وفى المستضعفين من المؤمنين فى هذه الأمة المحمدية ، فثبتهم الله ولم يضعف لهم إيمان .

(ا) أخرج البخارى بسنده فى أعلام النبوّة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ كَانَ من قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فى الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَار فَيُوضَع عَلَى رأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَين ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَادُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عن دِينِه » .

(ب) بلغ من تعنت قريش ووقوفهم فى سبيل الدعوة المحمدية أن أذاهم لم يكن مقصورًا على خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، بل تعداه إلى المستضعفين والأرقاء الذين لم يكن لهم من يحتمون به أو يعتزون بعصبيته ، فقد عذب أهل مكة الكثير منهم ليفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم من بعد إيمانهم كفارًا فلم يفلحوا . ومن هؤلاء بلال بن رباح الحبشى ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، أوقع بهم المشركون من العذاب مالا طاقة لأحد به ! وقصص تعذيب هؤلاء وغيرهم مشهورة فى السيرة النبوية وفى التاريخ ... وكلها نماذج من الطراز الأول فى قوة الإيمان ، والثبات على الحق الذى ثبتهم الله عليه فى هذه الحياة الدنيا .

(وَفِى الْآخِرَةِ) : يثبتهم الله بعد الموت ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا فى قبورهم ، أو بين يدى ربهم حينما يسألون عن معتقدهم ، ولا تدهشهم أهوال القيامة ، والقبر هو أول منزل من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ، ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه . ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى عن عثمان رضى الله عنه ؛ كما صح عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه قال : (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِى الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ) فذلك قوله تعالى : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ » الآية . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِى قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عنه أصحابه ، وإِنَّهُ لَيَسْمَع قَرْعَ نِعَالِهِم إِذَا انصَرَفُوا - أَتَاه مَلَكَانِ فيُقْعِدَانِه فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُول فى هَذَا الرَّجل (محمد صلى الله عليه وسلم) فأَمَّا الْمؤمِنَ فَيَقُول : أَشْهد أَنَّه عَبْدُ الله وَرَسُولُه .

فَيُقَالُ لَهُ : انظُر إلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ،وَيُفْتَحُ لَهُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَيْهِ ،وَأَمَّا الكَافِرُ أَو المُنَافِقُ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِى كُنْتُ أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاس . فَيُقَالُ :لَا دَرَيتَ ولَا تَلَيْتَ[١] . ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ من حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَينَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنَ يَلِيهِ إلَا الثَّقَلَيْنِ[٢] » . أخرجه الشيخان وغيرهما .

(وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ) : أى يتخلى اللهُ سبحانه عن الكافرين الظالمين لأنفسهم فيخذلهم ولا يعينهم ، لإصرارهم على الكفر والضلال ، حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فلم يهتدوا إلى القول الثابت الذى ثَبَّت الله به المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى يصرفهم عن الحجة يوم القيامة .فلا يستطيعون الدفاع عن كفرهم ومعاصيهم . والمقصود أنه لا حجة لهم على ما اقترفوه من الكفر والمعاصى .

(وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ) : أى يفعل الله جلت حكمته ما يريد من تثبيت أهل الإيمان ومثوبتهم ، وخذلان أهل الكفر وعقابهم ، فله الحجة البالغة . وفى إظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالا يخفى .

(* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾)

(١) الأصل : ولا تلوت ، وقلبت الواو ياء للازدواج والمناسبة لماقبلها .

(٢) الإنس والجن ، والحكمة فى عدم سماعهما الامتحان والابتلاء ، إذ لوسمعا لكان الإيمان منهما ضروريا .

المفردات :

(كفروا نعمة الله) كفر النعمة : جحدها . (دَارَ الْبَوارِ) : دار الهلاك ، ويطلق البوار أيضًا على الكساد .

(وَبِئْسَ الْقَرَارُ) : وبئس المستقر . (أَنْدَادًا) : جمع ند وهو المثل والنظير .

(مَصِيرَكُمْ) : مرجعكم . (لَابَيْعٌ فِيهِ) : لا فدية فيه .

(وَلَا خِلَالٌ) : الخلال معناه المخالَّة وهى المُوَادَّة . أو جمع خليل وهو الصديق ، أو جمع خُلَّة . بضم الخاءِ وتشديد اللام مفتوحة : وهى الصداقة .

التفسير

٢٨ ـ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا) :

بين الله فى ختام الآيات السابقة حال المؤمنين ، وحال الظالمين وأنه سبحانه يثبت المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، ويضل الظالمين بأَن يتخلى عنهم لإصرارهم على الكفر . ويفعل بكلا الفريقين ما يشاءُ من تثبيت المؤمنين،والتخلِّى عن هداية الظالمين،وَمِنْ ثَوَابِ الأَولين ، وعقاب الآخرين.وجاءَت هذه الآية وما بعدها بيانًا للأَسباب التى أدت إلى ضلال الظالمين واستحقاقهم سوءَ العاقبة . وقبح المصير .

والخطاب فى قوله : « أَلَمْ تَرَ » موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى كل من يصلح للخطاب مقصود به التعجيب مما صنع الكفار من اقتراف الأَباطيل الكثيرة ، التى كان من جملتها جحد نعم الله الظاهرة والباطنة . والمراد بهم مشركو قريش فالآية نزلت فيهم ، المعنى : أَلم تنظر إلى الذين بدلوا شكر نعمة الله عليهم . فجعلوا مكانه كفرًا عظيمًا فبدلا من أن يشكروه بتوحيده فى العبادة أَشْرَكُوا معه غيره . أَو بدلوا شكر النعمة كفرًا لها بإهمالها . وعدم رعاية شأْنها فسُلِبوها وحُرِموا منها ،وذلك ما حدث لأَهل مكة . أَسكنهم الله حرمه الآمن الذى يجبى إليه ثمرات كل شيءٍ وجعلهم قُوَّامَ بيته . وشرفهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بذلك ، وأَذوا النبى وأَصحابه فأَصابهم القحط سبع سنين وعوقبوا بالقتل والأَسر يوم بدر .

(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) : أى أنزلوا أهلهم واللاحقين بهم دار الهلاك ، بما قادوهم إليه من شرك وضلال . وعن ابن عباس أنهم قادة قريش ، وعن عمر وعلى أنهم أشد قريش فجورًا . وهم بنو المغيرة وبنو أمية .

والتعبير عن الهلاك بالبوار مع أن أصله كما قال الراغب : فرط الكساد لأنه يفضى إلى الفساد المؤدى إلى الهلاك .

ولم تتعرض الآية للنص على حلولهم أنفسهم دار البوار . لأن إحلال قومهم فيها فرع لحلولهم إذ هم رأس الشرك ودعاة الضلال ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » .

ثم بين الله دار البوار بعد إبهامها فقال جل شأنه : (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) : أى أن دار الهلاك هى جهنم التى يدخلونها ويخلدون فيها . ولا ريب أن فى البيان بعد الإبهام من التهويل والتخويف مالا يخفى حيث تذهب النفس فى رسم صورتها المفزعة كل مذهب .

(وَبِئْسَ الْقَرَارُ) : أى بئس المقر جهنم الذى جعلوه مكانًا لقومهم تبعًا لهم . فليس له ما يضارعه فى أهواله ولا فيما يذم به لسوء حاله ، أو بئس القرار قرارهم فيها . وفى التعبير بالقرار إشعار بأن حلولهم فيها وصُلِيَّهم إيَّاها على سبيل الدوام والاستمرار .

٣٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . . .) الآية .

هذه الآية تعجيب مما اقترفوه كالتى قبلها . حيث جعلوا لله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء أمثالاً فى التسمية أو فى العبادة . وهى الأصنام والأوثان . جعلوها آلهة فى اعتقادهم وحكمهم .

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) : أى لإضلال قومهم الذين يدينون بالولاء لهم - لإضلالهم - عن سبيل الله وهو التوحيد ، بما زينوه لهم من شرك وافتراء (قُلْ) : يا محمد لهؤلاء المشركين تهديدًا لهم ووعيدًا : (تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) :

أى تمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات التى تماديتم فيها ، ومن جملتها تبديل نعمة الله كفرًا ، وإضلال الأتباع ، وسمى عملهم هذا تمتعًا تشبيهًا له بالمشتهيات المعروفة بالتلذذهم به كتلذذهم

بها . ثم بين سبحانه جزاءهم الذى لا مفر منه ، ولا محيص عنه فقال تعالى :

(فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) : أى إن دمتم على ما أنتم عليه . من الاستجابة لداعى الشهوة ، ودافع الانحراف . فإن مآلكم إلى نار جهنم فيها مستقركم ومأواكم ، أو هو تعليل لأمرهم بالتمتع ، وفيه من التهديد الشديد ، والوعيد القوى مالا يوصف .

والمعنى تمتعوا بما شئتم فلا أمل لكم فى النجاة لأن مردكم ، ومرجعكم إلى النار لا لشئ سواها .

٣١ - (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ . . . .) الآية .

لما هدد الله الكفار وعجّب من قبح ما فعلوا حيث بدلوا نعمة الله كفرًا ، وأضلوا أتباعهم وأشركوا به تعالى ، واقترفوا كل منكر . أنزل هذه الآية تكليفًا لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يأمر عباده المؤمنين بأداء العبادة البدنية تامة كاملة ، والإقبال على العبادة المالية بنفوس راضية .

والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين استجابوا دعوة ربهم فآمنوا ، قل لهم : أقيموا الصلاة وأدوها حق أدائها بأركانها وشروطها فى أوقاتها ، وقل لهم أيضًا أدوا الزكاة وأنفقوا مما رزقكم الله على المحتاجين والمعوزين ، فإن المال مال الله فهو معطيه ومسبب أسبابه ، وهو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، وقد أبحنا لهم أن ينفقوا سرًّا كما يشاءون ، وعلنًا كما يحبون ، بغير مَنٍّ ولا رياء .

والمراد حث المؤمنين على أداء عبادته البدنية والمالية شكرًا ، لنعمه التى تفضل بها عليهم .

واعلم أن الأفضل فى إنفاق التطوع الإخفاء ، وفى إنفاق الواجب الإعلان ، وعلى العباد أن يسارعوا إلى امتثال ما أمروا به من إقامة الصلاة والإنفاق .

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) : فإنه إذا جاء ذلك اليوم لايتسنى لمقصر فى دنياه ، أن [illegible]لافى تقـ[illegible]اذا ، أو يفتدى نفسه بما يكسبه من بيع أو شراء أو بشفاعة خليل ، فإ[illegible] لا بيع فى [illegible] اليوم ولا شراء ، ولا تنفع فيه شفاعة الأصدقاء والأخلاء إذا لقى العبد ربه كافرًا ، حيث « لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] . وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح ، ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ »[2] .

(١) الشعراء - ٨٨

(٢) سورة الليل من ١٩ - ٢١

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : كل ماعلا الإنسان فأظله فهو سماءٌ. والمرادبه هنا السحاب .

(رِزْقًا) : مرزوقا مما يطعم أو يشرب أويلبس أو ينتفع به .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ) : أى يَسَّر الْفُلْكَ لإرادتكم . (والْفُلْكَ):بسكون اللام ؛ السفينةُ . يستعل فى الواحد فيذكر ، وفى الجمع فيؤنث .

(دَائِبَيْنِ): فى حركة دائمة لايفتران . يقال دأب فى عمله دأبا ويحرك جدَّ فيه .

(لَاتُحْصُوهَا): لاتقدرون على حصرها وعَدِّها. والإحصاءُ فى الأَصل : العد بالحصى ثم أطلق على العَدِّ مطلقا .

(ظَلُومٌ) : ظالم شديد الظلم يقال :ظلم، يظلم ،ظلما ،من باب ضرب فهو ظالم وظلوم . والظلم : وضع الشىء فى غير محله .

(كَفَّارٌ) : جاحد النعمة . يقال كفر النعمة وكفر بالنعمة جحدها .

التفسير

٣٢- (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً . ...) الآية .

لما ذكر الله أحوال الكافرين المعاندين الذين جحدوا نعمهُ ، بالكفر بوحدانيته ، والإشراك فى عبادته ، وتكذيب رسوله ، وأتبع ذلك أمر المؤمنين بطاعته البدنية والمالية ، شكرا له على نعمه ، لما ذكر ذلك - جاء بهذه الآية وما بعدها ليوجه عباده إلى أدلة القدرة الماثلة فى الآفاق. ويذكرهم بالنعم العظيمة التى يتقلبون فى أعطافها . حثًّا للمؤمنين على المزيد من شكرها ، وتقريعًا للكافرين الجاحدين لها ، وقد بدئت هذه الآية بلفظ الجلالة وأخبر عنه بالاسم الموصول بسبع جمل ، تبرز أدلة باهرة على قدرة الله تعالى ووحدانيته . فهو وحده الذى خلق السموات ، وأبدع صنعها على غير مثال سبق ، وأوجد فيها الأجرام العلوية من نجوم وكواكب ، وخلق كذلك الأرض وما فيها من أنواع المخلوقات .

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ من الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) : المراد من السماء هنا السحاب ، أى أنزل من السحاب نوعا خاصا من الماء وهو المطر ، فأخرج به أزواجا أى أنواعًا من نبات شتى ، أخرج به زروعًا وثمارًا مختلفة الألوان والأحجام والطعوم والمنافع . وجعلها رزقًا لكم تعيشون به . مطعومًا كان أو ملبوسا أو غير ذلك .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : أى ذلَّلَ لكم السفن لتجرى فى البحر بمشيئته ، وذلك بأن أقدركم على صنع السفن ويسر لكم استعمالها . فجرت على وجه الماء فى البحر مذللة خاضعة لإرادتكم بأمره : أى بمشيئته التى ارتبط بها كل شىء فى الوجود ، فتسيير الآلات ليس بمعزل من توفيق الله ومدده .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) : أى ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم . وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم .

٣٣- (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) : أى أنه تعالى يذللهما ليلا ونهارًا لايفتران عن حركتهما وإصلاحهما لما ارتبط بهما صلاحه من الموجودات وفق تقدير الله. وهما لايلتقيان إلى قيام الساعة . « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : فهما يتتابعان فيكم ويتعاقبان ،لتتخذوا من النهار معاشًا فتبتغوا فيه من فضله ، ومن الليل سكنًا تستعيدون به قوتكم ونشاطكم، وبهما يتم عقد ثماركم وإنضاجها واختلاف الفصول بما يكون فيه صلاح أمركم واستقامة شأنكم، وما به تتنوع أصناف زروعكم وتتعدد أجناس ثماركم ، إلى غير ذلك من النعم الجليلة كالاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر .

٣٤- (وَآتَاكُمْ مِّن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ) : أى تفضل عليكم فأعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئًا اقتضته مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ، كما فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ » .

أو أعطاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه - فحذف الثانى لدلالة الأول عليه ، ونظيره : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى أمدكم بما تحتاجون إليه فى جميع شئونكم، من كل ما هو جدير بسؤالكم ، سواء أسألتموه أم لم تسألوه . وفى هذه الحياة أشياء كثيرة لازال يجهلها الإنسان وهى مُعَدَّةٌ له ، ومتى حان وقت إبرازها كشف الله له عنها ، بما أمده به من عمق فى العلم وقوة فى العقل وتوفر على البحث ، أو عن طريق الصدفة ، وقرئ بتنوين كل : والمعنى على هذه القراءة وأعطاكم من كل شىء :ما سألتموه - على أن (ما) نافيه - أى من كل شىء حال كونكم غير سائليه .

(وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا) : أى أن نعم الله عليكم كثيرة متعددة ، فإن حاولتم إحصاءها ولو إجمالًا فإنكم لن تطيقوه ، لأنها لا يلم بها الحصر ولا يحيط بها العد فهلا استعنتم بها على الطاعة . وشكر النعمة وعدم الإشراك به فى العبادة .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) : المراد من الإنسان الجنس ومن الكفر كفر النعمة بالتقصير فى شكرها .

والمعنى : أن الإنسان لا يقدر نعم الله عليه وهى لاتحصى ، فتراه عظيم الظلم لنفسه ، شديد الكفران لنعم ربه ، فهو دائم الانتفاع بها ، والتقصير فى أداء شكرها ، ووضعها فى غير موضعها ، ولو أنصف نفسه وعرف حق ربه لاستدام شكره ، والوفاء بحقه جل وعلا .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي
وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ
إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ
تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(الْبَلَد) : مكة المكرمة . (اجْنُبْنِى) : أبعدنى . يقال :جَنَبْتُ الرجلَ الشَّرَّ من باب نصر . أبعدته عنه ، وجنَّبْتُه بالتشديد مبالغة .(بِوَادٍ) :الوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذًا للسَّيل . والمراد به هنا ما يحيط بالبيت الحرام .(تَهْوِى إِلَيْهِمْ): تسرع إليهم شوقًا وحُبًّا . يقال : هوى إليه يَهْوِى هُوِيًّا بضم الهاء إذا أسرع فى السَّير ــ (مَا نُخْفِى) : ما نضمر ونستر. يقال : أخفيت الشىء سترتُه . وخَفِى الشىءُ اسْتَتَر أو ظهر ضدٌّ .(ومَا نُعْلِنُ) : وَما نظهر. يقال.عَلَنَ الأَمْرَ من باب قعد ظهر،وأعلنته ؛ أظهرته .

التفسير

٣٥ ــ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً) :

هذه الآية ومابعدها يذكر الله فيها نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بماوقع من مخالفة قريش لوصايا أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، تأكيدًا لما سبقمن تعجيبه صلوات الله وسلامه عليه من أحوالهم ،وتماديهم فى الطغيان والضلال ــ والمعنى : واذكر أيها النبى وقت قول

إبراهيم لربه ، بعد أن أسكن إسماعيل وأمه وادى مكة « ربِّ اجْعلْ هذا الْبَلَدَ آمِنًا » : أى يا إلٰهى الذى أعبده اجعل مكة - شرفها الله - بلدًا ذا أمن ، حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

(وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) : أى أبعدنى وذريتى عن عبادة الأصنام ، والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من البعد عن عبادتها ، وإنما سأل إبراهيم هذا لنفسه مع أن الأنبياء جميعاً معصومون من الشرك ، للإيذان بأن العصمة بفضل الله ومعونته وتوفيقه ، كما أن فيه هضماً لنفسه واعترافاً بحاجته إلى فضل ربه فى كل أمر ، والمراد من بنيه من اتبعه فى شريعته من ذريته بدليل قوله تعالى : « فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى » فكأنه لا يعتبر من ذريته من لم يتبعه ، وعلى هذا تكون دعوته مستجابة تماماً حسب نيته ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء فى سورة البقرة من قوله تعالى : « قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ »(١) .

٣٦ - (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) :

لما كانت الأصنام سبباً للإضلال أسند إليها الإضلال مجازًا ، لأنهن جماد فلا يعقل منهن ذلك على الحقيقة .

وجملة : « إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » : تعليل لدعاء إبراهيم السابق ، وهو قوله : « واجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ » . وصدر هذا التعليل بقوله (رَبِّ) ، إظهارا للاعتناء به ، ورغبة فى استجابته - والمعنى : وأبعدنى وذريتى عن أن نعبد الأصنام يارب لأنهن تسببن فى إضلال كثير من الناس ، بنصبها شركاء لله فى العبادة ومشاهدة الأبناء للآباء فى تقديسهم لها ، فكان ذلك مُغْرياً لهم بعبادتها ، ثم إن إبراهيم عليه السلام أدرك بفطرته أن بنيه سوف ينقسمون بعده إلى موحدين ومشركين ، فلذلك أظهر لربه أنه لا يستحق الانتساب إليه إلا من اتبعه فى دينه دون من عصاه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

(فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن تبعنى منهم فى التوحيد والإسلام الذى هو دين الله ، فإنه متصل بى نسباً وديناً ، ومن عصانى بإعراضه عن التوحيد الذى أدعو إليه ، وإصراره على المعاصى .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٢٤ .

(فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإنك أهل للغفران الشامل والرحمة الواسعة ، ومن كان كذلك فإنه يغفر لأمثالهم ويرحمهم ، فإن قيل : إن من ذريته من عصاه بالإشراك بالله ، فكيف يدعو له بالمغفرة والرحمة ، فالجواب أنه دعا هذا الدعاء الشامل قبل أن يعرف أن الله لا يغفر أن يشرك به ، أو أنه قيده فى نفسه بالتوبة من الشرك ، فكأنه قال : فإنك غفور رحيم لمن تاب منهم قبل موته ، وقال مقاتل وابن حَيَّان المغنى : « ومن عصانى » فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم .

٣٧- (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) :

المقصود من ذريته فى الآية ابنهالبكر إسماعيل الذى ولد له فى شيخوخته من أَمَتِهِ هاجر التى وهبها ملك مصر لزوجته سارة ، فوهبتها له .

وكانت سارة عقيماً زمنا طويلا ، فلما ولدت هاجر التى كانت جاريتها ، حدث فى نفسها ما يحدث للنساء من الغيرة ، فناشدته أن يخرجهما من عندها ، فذهب بهماإلى أرض مكة ، ووضعهما هناك ، حيث لا يوجد زرع ولا ماء ، ولا أحد يقيم بتلك الأرض الموحشة ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم عليه السلام راجعاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شىء ، ولما لم يجبها قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ؛ ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم عليه السلام ،حتى إذا كان عند الثنية - حيث لا يريانه استقبل البيت بوجهه ، وكان إذ ذاك مرتفعاً من الأرض كالرابية ، ثم دعا رافعاً يديه فقال : « رب إنى أسكنت من ذريتى » إلى قوله « لعلهم يشكرون[(١)] » . وقد آثر عليه السلام فى نداء ربه صيغة الجماعة بقوله . « ربَّنا » لتقدم ذكره وذكر بنيه ، والتعرض لوصف ربوبيته لهم أدخل فى القبول وإجابة المطلوب .

والمعنى : ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى بواد لا ماء به ولازرع ،عند المكان الذى أعددته لبيتك المحرم ،مع أن هذا المكان غير صالح للسكنى لفقد الماء والزرع،وقد أقدمت على ذلك استجابة لأمرك ، وتقرباً إليك ،وثقة بأنك سترعى ذريتى بعد أن لجأت إلى جوارك الكريم.

(١) القصة رواها البخارى مطولة فارجع إليه إن شئت .

وإضافة البيت إلى الله تعالى لأنه لا يملكه غيره ، ولا يُصَلَّى نحوه إلى سواه ، ووصف البيت بالمحرم للإيذان بعزة الملجإ ، وعصمته عن المكاره ، حيث حرم التعرض له والتهاون به .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) : فى هذه الجملة تعليل لإسكان بعض ذريته فى هذه البقعة الجرداء المجاورة للبيت الحرام .

والمعنى : ياربنا ما أسكنت بعض ذريتى بهذا الوادى البلقع الخالى من كل مرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بالذكر والعبادة ، والتعبير بصيغة الجمع فى قوله : « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » : ، مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل يؤذن بأن الله تعالى أعلمه أن ولده إسماعيل ، سيعيش وتكون له ذرية كثيرة ، وسيكون رسولا إليهم ليقيموا الصلاة على شريعته .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ) :

أى فاجعل قلوبا من قلوب الناس تسرع إليهم شوقاً ووداً ليساكنوهم ويعيشوا معهم ، وأول آثار هذه الدعوة أنه تعالى أنبع ماء زمزم ، ومرت رفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير تحوم على الجبل ، فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء ، فأشرفوا ، فإذا هم بهاجر ، فقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك .

(وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) : فاستجاب الله دعاءه ، ورزق ذريته وكل من انحاز إليهم بما أنبت لهم من أشجار الفاكهة المختلفة بقرى قريبة كالطائف ، أو مايجلب إليهم من الأمصار والأقطار الشاسعة من مختلف الفواكه والثمار ، حتى أصبحت لديهم كثيرة موفورة ، يجتمع منها عندهم الأنواع المتعددة فى اليوم الواحد ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا »[١] .

وهذا من فضل الله وكرمه ، ليكون عونا على عبادته والرغبة فى البقاء فى حراسة حرمه ، وليجعل من موطنهم القفر ومنزلهم الموحش . مطمح الأنظار ومحط الرحال . وهى لذلك تستوجب منهم أداء مراسم العبودية تامة كاملة شكرا له تعالى وثناء عليه .

٣٨ ـ (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ . . .) الآية .

كرر إبراهيم نداء ربه للمبالغة فى الضراعة .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٥٧

والمعنى : ياربنا إنك تعلم كل أحوالنا ، لايخفى عليك شئ منها . فتعلم مانخفيه ونستره ومانعلنه ونظهره ،فكل ذلك عندك فى العلم سواءٌ .

وقال ابن عباس ومقاتل فى تفسير هذه الجملة : تعلم جميع ما أُخفيه وما أُعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع .

ولكن حمل الآية على عموم أحوالهم أولى ، ويدخل فيه مايتعلق بإسماعيل وأمه ،وقدم نخفى على نعلن فى الذكر ،لأن مرتبة الإسرار متقدمة على مرتبة الإعلان ،فما من شىء أُظهر إلا كان قبل ذلك فى طى الكتمان ، وبعد أن اعترف إبراهيم لربه بأنه سبحانه يعلم ما يخفيه وما يعلنه هو وذريته ، أقرَّ لربه بعلمه بكل مافى الكون حيث قال :

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) : أى أنه تعالى لا يخفى عليه فى سماواته وأرضه شىء من الذرات والأجزاء والأوصاف والأعراض ، وما يصلح ذلك ومايفسده ، وما يبقيه ومايفنيه : « وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

ويقصد إبراهيم عليه السلام بقوله : « وما يخفى على الله من شىء » إلخ أداء حق ربه عليه ، وتعليم ذريته مايجب عليهم إدراكه من شئون ربهم ، ليخافوه فى سرهم وعلنهم .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من قوله تعالى ، إجابة منه لإبراهيم حين قال : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » . تصديقا له وتأييدًا لشهادته ، وتوسيعا لدائرة علمه جل وعلا تعليما لعباده .

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ
إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ
وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ) : رزقنى مع تقدمى فى السن .

(إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) : أى إنك مجيب دعاء من دعاك .

التفسير

٣٩ـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . .) الآية .

أى الثناء منى على الله شكرًا له حيث منحنى مع كبر سنى ويأسى من الولد ـ منحنى ـ إسماعيل وإسحاق . وقال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة .

(إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) : المقصود من سماع الدعاء قبوله وإجابته ،أى إن ربى ومالك أمرى لمستجيب دعاء من دعاه ، وقد استجاب دعائى فيما سألته من الولد .

٤٠ـ (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي . .) : أى وفقنى إلى دوام المحافظة عليها والخشوع فيها ، وإقامة حدودها واجعل من ذريتى من يقيمها ، وقد خص الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لايكون مقيما للصلاة ، بأن يكون كافرا أومؤمنا لايؤدى الصلاة ، ويجوز أن يكون قد علم من استقرائه عادة الله فى الأمم السابقة ، أن يكون فى ذريته من لايقيمها ، وهذا كقوله تعالى : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ »

(رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) : أى دعائى بتحقيق ماطلبته من الأدعية السابقة .

٤١ـ (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ....) : بما أن إبراهيم لايرتكب ذنبا كشأن جميع الأنبياء فيكون معنى هذه الجملة ، ربنا تجاوز عما فرط منى من ترك الأولى فى أعمالى الدينية وغيرها مما لايسلم منه البشر . واغفر لوالدى . وكان ذلك الاستغفار منه لهما قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله ، وقال القشيرى : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة ، لأن الله ذكر عذره فى استغفاره لأبيه دون أمه فقال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[1] . وروى عن الحسن أيضا أن أمه كانت مؤمنة ، وختم إبرهيم عليه السلام دعاءه بقوله :

(١) سورة التوبة (١١٤)

(وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) : أى واغفر للمؤمنين جميعا من ذريتى وغيرهم حينما يقومون للحساب والجزاء يوم القيامة ، وتلك دعوة وشفاعة منه للمؤمنين المذنبين نرجو أن يتقبلها الله منه .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾)

المفـردات :

(تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : تكون فيه أبصار أهل الموقف مفتوحة لاتَطْرِف . يقال شخص البصر إذا ارتفع ، ويتعدى بنفسه ، فيقال شخص الرجل بصره . إذا فتح عينيه لايطرف . (مُهْطِعِينَ) : مسرعين ، من أهطع فى عَدْوه إذا أسرع .

(مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ) : رافعيها من إدامة النظر لا يلتفتون إلى شىء ، يقال أقنع رأسه رفعه .

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : الطرف : العين ولايجمع لأنه فى الأصل مصدر . والمراد لاترجع إليهم أجفانهم التى تحتها العيون بل تظل مفتوحة .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى وقلوبهم خالية لايشغلها سوى الخوف .

التفسـير

٤٢ـ (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ . . . .) الآية .

الخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم . والمراد منه تثبيته على ما كان عليه من علمه أنه تعالى ليس غافلا عما يعمله المشركون الظالمون ، كما أن فيه تسلية للرسول عما يفعلونه : بما يشعر به من الوعيد لهم والوعد له .

والمعنى : ولاتحسبنَّ أيها الرسول أنه تعالى فى إمهالهم وتأخير عذابهم غافل عما يعمل الظالمون ، فإنه سبحانه لاتخفى عليه منهم خافية .

أو لاتحسبن الله يترك عقابهم لِلطفِهِ وكرمه . بل هو معاقبهم على القليل والكثير . وعن ابن عُيَيْنَةَ أن هذا تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، وروى نحو هذا عن ميمون بن مهران . والمراد بالظالمين على هذا جنس الظالمين وأهل مكة داخلون فى الحكم دخولا أوليا .

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : هذا النص الكريم استئناف وقع تعليلا للنهى السابق وهو : «ولَاتَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر عقابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب موقوفون عليه رغما عنهم ، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال فلا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر ، وهذا التأخير ليوم هائل لاتغمض فيه أبصار أهل الموقف لهول مايرونه فى ذلك اليوم من شدائد ، بل تبقى مفتوحة لاتتحرك أجفانها ولاحَدَقاتها ، قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ لشدة الحيرة ، أى تبقى مفتوحة لاتطرف .

٤٣ـ (مُهطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ......) : هؤلاء الظالمون يقبلون على الداعى يوم القيامة مسرعين إليه تتعلق به أبصارهم لاتتحول عنه ولايطرفون هيبة وخوفا .

(مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ) : أى رافعيها مع إدامة النظر إلى مابين أيديهم .

(لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : أى لايرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلا عن النظر إلى شىء آخر . بل يبقون مبهوتين حائرين .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى قلوبهم خاوية خالية ليس فيها فهم ولاعقل ، لفرط الحيرة والدهشة ، كقولك فى البيت الذى ليس فيه شىءٌ إنما هو هواءٌ. وهذا المعنى قاله ابن عباس وغيره ويجوز أن يكون المراد أن عقولهم خرجت رعبا وهلعا كأنها هواءٌ .

(وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَأَنْذِرِ) : وخوف . (يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) : يوم القيامة .

(أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أعدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب .

(مَالَكُم مِّنْ زَوَالٍ) : أى مالكم من بعث ونشور .

التفسير

٤٤ـ (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ . .) : هذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمرله بإنذار الناس ، والمراد بهم الكفار المعبر عنهم بالظالمين فى قوله تعالى : « ولَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » . وقال الجبائى وأبو مسلم : المراد بالناس مايشمل أولئك الظالمين وغيرهم من المكلفين . والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما فى قوله سبحانه : « إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » . وإتيان العذاب يعم الفريقين من حيث كونهما فى الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة ـ أنذرهم ـ :

(يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) . أى خوفهم ذلك اليوم المعهود وهو يوم القيامة الذى وصف بما يذهب الألباب ، لما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيبا .

(فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أى يصدر عنهم هذا القول فى ذلك اليوم ، والعدول عن لفظ - فيقولون - إلى ما فى النظم الكريم . لتسجيل الظلم عليهم ، وأنه سبب ماينالهم من شدة ونكال ، وفى قولهم (رَبَّنَا أَخِّرْنَا) إلخ إشارة إلى ندمهم وعجزهم عن الاحتمال . قال الضحاك ومجاهد : إنهم طلبوا الإمهال والرد إلى الدنيا للرجوع إلى حال التكليف ، وقد طلبوه إلى أمد من الزمن قريب حين ظهر لهم الحق . ليعملوا فيه مايرضيه جل شأنه ، وسجلوا ذلك على أنفسهم فقالوا : (نُجِبْ دَعْوَتَكَ) : إلى الإسلام بتوحيدك ، واتباع تعاليم دينك ، وذلك ما صرحوا به فى قولهم : (وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) : فيما جاءوا به مبشرين ومنذرين ، أى نتدارك ما فرطنا فيه بإعراضنا عن إجابة الدعوة واتباع الرسل ، وجئ بلفظ الرسل لأن الحديث عن يوم القيامة الذى يجمع الرسل وأممهم .

ولما كانت طبيعة الظالمين الكذب والافتراء ، وأن يقولوا ما لا يفعلون أجابهم الله تعالى : (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَالَكُم مِّنْ زَوَالٍ) : أى فيقال لهم ردا على قولهم توبيخا لهم وتبكيتا ، وبعثا على اليأس والحسرة : أو لم تكونوا فى الدنيا تحلفون بألسنتكم أنكم لاتزولون ولاتتحولون من قبوركم إلى دار أخرى ، وأنه لامعاد ولاجزاء - كما أخبر عنهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ . بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا » .

٤٥ - (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . .) : أى وأقمتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين المهلكين قبلكم ، وكنتم فيها سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر واقتراف المعاصى ، وليس لكم فيهم معتبر ولافيما أوقعناه بهم مزدجر .

(وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) : أى ظهر لكم بمشاهدة الآثار الباقية من ديارهم التى أبيدت وأصبحت أثرا بعد عين ، وبتواتر أخبارهم - ظهر لكم - ماصنعناه بهم من تدمير وإهلاك بسبب مااقترفوا من ظلم وإفساد . (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) : أى بينا لكم فى التنزيل على ألسنة

الأنبياء أحوالهم جميعها : ما فعلوه ومافُعل بهم من الأُمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة : لتكون لكم فيها عظة وعبرة . بقياس أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم . فترتدعوا عما أنتم فيه من الشرك والضلال طلبا للنجاة، أوبينا لكم أنكم مثلهُم فى الكفر واستحقاق العذاب، وتكون الأمثال على هذا جمع مِثْل بمعنى الشبيه والنظير .

٤٦ـ (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ . . .) : أى فعلنا بهم مافعلنا والحال أنهم مكروا مكرهم البالغ الذى استنفدوا فيه طاقتهم، وبذلوا فى تدبيره كل مجهود لهم، سعيا فى إبطال الحق وتقرير الباطل ، وقد جاوزوا بمكرهم كل حد . وفى هـذا إشارة إلى تمام استحقاقهم مافعل بهم .

(وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ) : أى وعنده عِلْمُ مكرهم الذى يهلكهم به . أو عنده جزاءُ مكرهم الذى فعلوه، وتسمية عقابهم مكرا لكونه فى مقابلة مكرهم وجودا وذكرا ويسمى هذا مشاكلة فى اصطلاح علماء البلاغة ، أو لكونه فى صورة المكر لوقوعه من حيث لايشعرون .

(وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) : أى وإن كان مكرهم فى غاية القوة ومنتهى الشدة، بحيث يكون معدا لإزالة الجبال عن مقارها، وهى التى جعلها الله للأرض أوتادا تحفظ توازنها وتضمن سلامتها . والمراد أن الله مجازيهم على مكرهم ومبطل أثره . وإن كانت تزول منه الجبال . وذلك إشارة إلى مؤاخذتهم على أى حال، وعدم التفاوت بين كون مكرهم ضعيفا أو قويا .

وعن الحسن وجماعة أن «إن» نافية . واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ».والمعنى على هذا : وَمَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعند الله جزاء مكرهم والحال أنه ماكان له أثر وخطر عند الله حتى يزول منه ما هو كالجبال فى الرسوخ من آيات الله وشرائعه ومعجزاته على أيدى الرسل السابقين عليهم السلام [1] .

(١) قالوا ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود «وما كان مكرهم لتزول منه الجبال» . حيث جاءت فيها (ما) النافية مكان (إن) .

(فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ
ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا
هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(بَرَزُوا) : خَرجوا من قبورهم . (مُقَرَّنِينَ) : المقَرَّنون؛ المجموعون بعضهم مع بعض فى قَرَن ،وهو الحبل الذى يربط به . (الأَصْفَادِ) : القيود والأغلال وهو جمع صفْد أو صَفَدٌ قيد يوضع فى الرِّجل . والغُلُّ : قيد تضم به اليد إلى العنق وقد يقصر على العنق [(١)] ، (سَرَابِيلُهُمْ) : جمع سربال ، وهو القميص .(قَطِرَانٍ) : القطران؛ سائل أسود تطلى به الإبل الجربى .(تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : تعلوها وتحيط بها .

التفسير

٤٧ـ (فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ . . .) : إن كان الخطاب للرسول فمعناه دُم على ماأنت عليه من الثقة بصدق وعد الله ،وإن كان لكل مكلف فهو للتحذير والإرشاد ،أى فلاتظن أنه سبحانه مخلف وعده لرسله بتعذيب الظالمين فى مثل قوله :

«وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً . . . » إلى آخر الآيات .

واقتران النهى هنا بالفاء يشير إلى ترتبه على ماسبق ، وكأنه قيل خطابا للرسول :

(١) ومنه قوله تعالى : « إذ الأغلال فى أعناقهم » .

وإذا كان الله قد أمرك أن تنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ويكون من أمر الظالمين فيه ماتقدم بيانه ، فدم على ما أنت عليه من كمال الثقة بالله . واليقين بإنجاز وعده الذى وعده رسله.

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) : أى أنه جل شأنه غالب لايغالَبُ ، قادر يفعل مايريد ، فينتقم لأوليائه من أعدائه . والجملة تذييل وتعليل للنهى السابق وهو قوله سبحانه : « فَلَا تَحْسَبَنَّ » . والتعرض لوصف العزة والانتقام يؤكد عدم إخلاف وعده رسله بتعذيب الظالمين جزاء ما اقترفوا من إفك وطغيان ، وفى جملتهم قريش .

٤٨ ـ (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .....) : أى أن الله ينتقم من الظالمين بتعذيبهم يوم تبدل الأرض غير الأرض .

واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات وقد يكون فى الصفات ، والآية ليست نصاً فى أحد الوجهين ، والله أعلم كيف يتم هذا التبديل .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) : أى وخرج الخلائق من قبورهم ، أو الظالمون المدلول عليهم بما سبق ، أو المراد ظهورهم بأعمالهم التى عملوها سرا وزعموا أنها لاتظهر ، وعبر عن البروز بصيغة الماضى لتحقق الوقوع . لأنه لامناص لهم من لقاء الله الواحد الغالب على أمره ، الفعال لمايريد ، لمحاسبتهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها ، وفى وصفه سبحانه بالوحدانية والقهر إشعار بأنهم عنده على خطر عظيم ، وإيذان بتحقق العذاب الموعود.

٤٩ ـ (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ...) : أى تبصر الكافرين يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. (مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) : أى مجموعاً بعضهم مع بعض فى قَرَن ، وهو الوثاق الذى يربط به ويضم كل امرئ لمشاركه.

٥٠ ـ (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ....) : أى قُمُصهم من قطران ، وهو سائل حار أسود اللون منتن الرائحة ، يساعد على سرعة اشتعال النار ، تطلى به الإبل الجربى فيحرق الجرب كما تطلى به جلود أهل النار حتى يكون عليهم كالسرابيل ، ليذوقوا أشد العذاب وأقساه ، بنار سريعة الاشتعال . شديدة الإيلام تجعل أجسامهم سوداء داكنة ، تفوح منها الروائح التى تزكم الأنوف ، وتقبض النفوس .

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : أى تعلوها وتحيط بها كما تحيط بأجسادهم المسربلة بالقطران . وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن غشيان النار حكم عام لسائر الأعضاء ،

لتنبههم إلى أن أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها تحيط بها النار، لكونها مجمع المشاعر والحواس التى خلقت لإدراك الحق، وقد أجرموا بالإعراض عنه، ولم يستعملوها فى تدبره والوصول إليه. ولعل تركها من الطلاء بالقطران ليتعارفوا عند انحسار اللهب أحيانا، ويتضاعف عذابهم بالخزى على رءوس الأشهاد.

٥١ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ...): أى يفعل الله بهم ماذكر. ليجزى كل نفس مجرمة. جزاء موافقًا لما اقترفت من كفر وعصيان، ويجوز أن يراد من النفس ما يعم المطيعة والعاصية فيكون المعنى: وبرزوا لله الواحد القهار، ليجزى كل نفس مطيعة أو عاصية ماكسبت من خير أو شر.

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ): فهو سبحانه لايشغله شأن عن شأن، ولايحتاج إلى تأمل وتدبر فى إصدار حكمه. بل يتمه فى أعجل وأسرع زمن.

٥٢ - (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ .....): هذا إشارة إلى ماذكر من قوله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا» إلى قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». أى ذلك كفاية فى العظة والاعتبار والتذكير، فما ظنك بما انطوت عليه السورة وما اشتمل عليه القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع. وهذا البلاغ إمَّا للكفار خاصة على اعتبار اختصاص الإنذار بهم فى قوله تعالى: «وَأَنْذِرِ النَّاسَ». وإما للناس عامة على اعتبار شمول الإنذار لجميع الناس. (وَلِيُنْذَرُوا بِهِ): معطوف على مقدر أى هذا كفاية للناس لينصحوا ولينذروا به ويجوز أن يكون البلاغ بمعنى الإبلاغ، كما فى قوله تعالى: «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ». والمعنى: هذا إبلاغ للناس ليفهموه ولينذروا به. (وَلِيَعْلَمُوا): بالتفكر والتأمل فيما فيه من البراهين الساطعة، والدلائل الواضحة التى أنبأت عن إهلاك الأمم السابقة، وإسكان آخرين مساكنهم إلى غير ذلك مماحكته الآيات التى تقدمت. هذا كله ليعلموا:

(أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ): تنزه عن الشريك والمثيل، وتقديم الإنذار لأنه الداعى إلى التأمل المؤدى إلى الغاية منه، وهو العلم بوحدانية الله جلَّ وعلا.

(وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ): أى هذا بلاغ للناس لما تقدم وليتذكروا، شئون الله مع عباده ومايعملون فى حياتهم فيرتدعوا عما يهلكهم، وذلك باجتناب مااتصف به الكفار، والتذرع بما يقربهم إلى الله، من التمسك بالعقائد الحقة والأعمال الطيبة، وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب إعلاء لشأنهم، وحض الناس على أن يكونوا منهم لينتفعوا مثلهم بمواعظه — والله تعالى أعلم.


Bibliotheca Alexandrina
0399104